

كتاب " الله"

سعید حوى

مقدمة

سلسلة الأصول الثلاثة هذه السلسلة سلسلة الأصول الثلاثة أردت فيها بيان الأصول الثلاثة التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بمعرفتها والإيمان بها وكنت فيها جاماً منسقاً أكثر مني منشئاً، فقد لاحظت أنه قد كتب الكثير في كل أصل من هذه الأصول الثلاثة بل كتب الكثير في كل جانب من أصل دون أن يكون هناك بحث جامع لهذه الأصول فأردت أن أسد هذه الثغرة بكل ما أوتيت من طاقة وكنت إذا ما وصلت إلى بحث كتب فيه غيري كتابة جيدة لا أرى مانعاً أن أنقل ما كتب أو جزءاً منه فلا يستغربن القارئ إذا رأى في الكتاب كثرة النقول فإن حرصي على إبراز الفكرة كان أكبر من حرصي على أن يمدح مادح أو من خوفي أن يقترح قادح يقول عليه السلام: من قال: "رضيت بالله ربنا وبالإسلام ديننا ومحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وجبت له الجنة" رواه أبو داود

وقال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربنا وبالإسلام ديننا ومحمد صلى الله عليه وسلم نبياً"

رواہ مسلم

و هذه الأصول الثلاثة تحدثت عن الذات الإلهية حديثاً يمحو كل شك بإذن الله ويزيل كل شبهة ويدحض كل إفك ويصل بالإنسان إلى الرضا بالله ربنا. و تحدث السلسلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً تتكشف به لكل إنسان جوانب في شخصية هذا الرسول العظيم مصحوباً بذلك بالإقناع والبرهان اللذين يجعلان الإنسان على مثل الشمس وضوحاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعظم مظهر للإنسان في كل جانب كما جلا أدلة رسالته بالشكل الذي لا يسع العقل إلا أن يؤمن. و تحدثت السلسلة بعد ذلك عن الإسلام عقائد وعبادات ومناهج حياة ومؤيدات مبينة كلياته مظهرة بعض جزئياته موضحة أصوله وفروعه مقيمة الحجة على الناس فيه بحيث لا يسع الإنسان أن يتركه إلى غيره. "وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيَنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ" آل عمران : 85 ولن ينتهي الإنسان من الدراسة إلا وقد ارتاح قلبه واطمأن ببرد اليقين إذا رغب في الحق وشاء الله له الهدایة وإلا فكم عقل زاغ عن الحق وهو يراه.

إن هذه السلسلة نقطة البداية لميلاد جديد لإنسان يريد الخروج من ظلمة الشك والحيرة والضياع والتشتت والتمزق والفوضى ويلاحظ قارئ هذه السلسلة مناقشاً ومعلاً ومبرهناً ومقنعاً معتمداً خطاب العقل بآناة وصبر وملحقاً لكل جوانب الشك وبينما كنت في الأصل الثالث الإسلام

عارضنا أكثر مني مناقشاً والسبب في ذلك يعود إلى أن الإنسان بعد أن يقتصر بوجود الله وان محمداً رسوله لم يبق أمامه إلا التسليم لدینه وشرعيته فالمسألة هنا مسألة تعريف ومنطق.

العقل يقول: إن الإنسان ليس أمامه إلا التسليم لله في شريعته فإنه الرب وخلقه عبيد والأعلم الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

وبسبب آخر جعلنا نقف هذه المواقف الطويلة أثناء الكلام عن الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم هو أن المادية الملحدة تحاول بكل إمكانياتها أن تنتهي الإنسان الله وان تصغر في قلبه وذاته عظمة رسول الله يساعدها على ذلك خطط أهل الأديان الباطلة في تشويه الصورة الصحيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لا بد من إعطاء هذه الدراسة حقها إذ أن هذه الحملات تزداد يوماً بعد يوم وتزداد انعكاساتها على النفس البشرية لحظة بعد لحظة حتى إن المسلمين وهم وحدهم أهل الحق في هذا العالم أصحابهم من هذا وهذا الكثير الفظيع حتى أصبحوا الآن في أتون ردة خطيرة هائلة وأصبحوا بحاجة إلى جلاء هذين الأصلين مع الأصل الثالث كغيرهم تقريباً إلا من عصى الله ورحمه.

وقد أردت بهذه السلسلة شيئاً آخر سوى ما مر: إن الذي يقومون بشأن التربية الإسلامية أغفلوا أهم جانب فيها على الإطلاق، هذا الجانب هو الذي أشار إليه ابن عمر في هذا النص يقول ابن عمر: "لقد عشت برها من دهرٍ وإن أحدها يؤتى بالإيمان قبل القرآن وتتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده منها كما تعلمون انتم القرآن ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمه ما يدرى ما أمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه وينثره نثر الدقل" (الدقق رديء التمر ويابسه).

إن مأساة المسلمين تكمن في أنهم أهملوا علم الإيمان وطريقه وهو المقدمة الفطرية لكتاب الله "قُلْ هُوَ لِلّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَّا فَصَلَتْ" 44 فكانت هذه السلسلة مع بعض كتبنا الأخرى محاولة لإرجاع الأمر إلى نصابه في هذا الموضوع ولعل هذه السلسلة بعد ذلك تعطي المسلم من قوة الحجة ما يستطيع به أن يدعو كل شارد عن باب الله وأن يقيم الحجة على كل عدول له ممن يجدون بآيات الله وإن استيقنوا

أنفسهم ظلماً وعلوا ولا يفوتي أخيراً أن أتبه إلى قضية هي: أنني نقلت من كتب كافرين ونقلت من كتب منحرفين لأن الحكمة ضالة المؤمن وليس كل كاتب نقلت عنه أشير به وليس كل كتاب نقلت عنه يستحق أن يقرأ ولكنني لم أنقل شيئاً لا أوفق عليه إلا بيته والله من وراء القصد وهو حسيبي ولنبي في الدنيا والآخرة ونعم الوكيل.

ملاحظة: إذا قرأت هذا البحث فسترى أن أعظم حقيقة يثبتها العلم والعقل بما لا يقبل الجدل هي وجود الله عز وجل وأنه لا أحد في هذا الكون يعرف الله حق المعرفة غير المسلمين

المقدمة

في السوق كتب كثيرة تدلى على وجود الله عز وجل ولكن الكثيرين من الذين يكتبون في هذا الموضوع لا يبنون البناء الصحيح على ما يقتضيه الإيمان بالله من إيمان برسله صلوات الله عليهم وإيمان بوحيه ودينه وشريعته ومن ثم كان هذا الكتاب سداً لهذه الثغرة إذ كان فيه تدليل ووضع لمحل الإيمان بالله في محله الصحيح في الحياة البشرية. وكثيرون من الذين كتبوا في موضوع الألوهية إما أنهم اقتصرت على التدليل على الوجود ولم يصلوا إلى التعريف على الصفات والأسماء، وإما أنهم تكلموا عن الصفات والأسماء ولم يدلوا على الوجود، فكان في كل من العملين ثغرة حاول هذا الكتاب أن يسدتها، وكثيرون من الذين تكلموا في الدليل إما أنهم فاتتهم الاستفادة من معطيات عصرنا أو أنهم تكلموا ضمن معطيات علوم عصرنا دون أن يربطوا ذلك بمعطيات العصور، وكانت تلك ثغرة كذلك حاول هذا الكتاب أن يسدتها.

وكثيرون من الذين تكلموا في هذه الشؤون فاتتهم الدقة العلمية أو الدقة في التعبير فشطح بهم القلم نحو كلمة لا تليق أو كلمة ليست صحيحة أو كلمة فيها كفر أو إثم وذلك تناقض مع المضمون فيما يقرأ الإنسان لتحقيق الإيمان إذا به يقع في الكفر وكان هذا الكتاب بريئاً من ذلك بفضل الله تعالى ومن ثم فإن هذا الكتاب وإن كان جديده قليلاً فإن ميزاته هذه ذات وزن كبير عند أهل الإنفاق. وندر من عرض لموضوع الإيمان العقلي بالله من بدايته إلى نهايته بدايته التي تحدد الطريق للمعرفة العقلية ثم تبني هذه المعرفة من خلال الدليل ثم تصل إلى ما يوصل إليه العقل من تعرف على صفات الله وأسمائه ثم تبرهن على أن ما يصل إليه العقل من تعرف على صفات الله وأسمائه ثم تبرهن على أن ما يصل إليه العقل هو نفسه الذي يوصل إليه الوحي الصحيح ثم تبين الأخطاء التي وقع فيها البشر في هذا الشأن.

إن كتاباً فعل هذا كله ربما يكون نادراً وتلك ميزة أخرى لهذا الكتاب ثم إن هذا الكتاب عرض من وجهة نظر إسلامية محضة لهذه القضية وبقلم إسلامي كذلك فرفع بذلك وصاية الأقلام الخاطئة أو المنحرفة أو الكافرة عن المسلم المتفق الذي يرحب في أن يقرأ في هذا الموضوع وكانت تلك ميزة أخرى من ميزات هذا الكتاب لقد هدف كثير من المؤلفين إلى قضية جزئية في مؤلفاتهم لها صلة بهذا الموضوع وأردنا في هذا الكتاب أن نحقق مجموعة ما قصد إليه المؤلفون وكان ذلك ميزة لهذا الكتاب المختصر.

ولقد حاولنا أن نقرأ كل ما استطعنا الوصول إليه من كتب تحدثت عن أي جانب من جوانب هذا الموضوع واستقمنا من الكثير منها، استقمنا من كتاب قصة الإيمان لنديم الجسر، ومن كتاب الله للعقاد، ومن كتاب العلم يدعو للإيمان لكريسي موريسون، ومن كتاب الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من العلماء، ومن كتاب الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل، ومن كتاب مصير البشرية ليكونت دي نوي، ومن كتاب مع الله في السماء لأحمد زكي، ومن كتاب العقائد للأستاذ البنا، ومن كتاب الوجود الحق للدكتور حسن الهويدى، ومن رسائل كثيرة أخرى وكتب كثيرة أخرى منها القديم ومنها الحديث ولقد سرت في هذا الكتاب مقرراً عقيدة الحق التي يجتمع عليها المسلمين تاركاً البحوث التي حدث فيها خلاف بين الفرق الإسلامية لأن تلك البحوث والتقرير في شأن ما اختلف فيه منها محلاً آخرًا فمن طبيعة هذه السلسلة كلها أنها لا تحتمل مثل هذه البحوث إلا أن لنا كلاماً في هذه الأمور في سلسلة أخرى إن شاء الله تعالى.

سرنا في البحث بأن حددنا الطريق إلى معرفة الذات الإلهية وهي آثار الله التي تدل عليه وبيننا أن هذه الآثار التي تدل عليه: الكون، القرآن، والمعجزات، والكرامات. وبيننا أننا في هذا البحث نريد أن نعرض الظواهر الكونية فقط وكيف أنها تدلنا على الله عز وجل وفي البحث الثاني عن الرسول صلى الله عليه وسلم سنتعرض للقرآن وللمعجزات وبذلك يكتمل الكلام عن الظواهر التي تدل على الله. وإنما اقتصرنا في هذا البحث على ذكر الأدلة الكونية فقط كي لا نضطر لأن نعيد كلاماً مرتين لأن الإعجاز القرآني كما يدل على الله يدل على أن محمداً رسول الله وإن المعجزات والكرامات كما تدل على الله فإنها تدل على أن محمد رسول الله.

وفي هذا البحث سنرى أن الظواهر الكونية وحدها كافية للدلالة على الله فكيف إذا اجتمع معها غيرها ومن خلال هذه القضية ندرك أن المسلم وحده هو الذي يمتلك التعليل الشامل والحق لكل شيء على خلاف الآخرين الذين يستطيعون التعليل لبعض الأشياء ويقفون عاجزين أمام غيرها ومع ذلك يملؤهم الغرور بسبب أنهم عرروا بعض قوانين هذا الكون.

ثم أنه بعد المقدمة التي حدثنا فيها الطريق إلى معرفة الله وذكرنا فيها التصورات الخاطئة والمعاني التي تحول دون الإيمان عرضنا تسع ظواهر كونية كنماذج على الظواهر الكونية الكثيرة التي تدلنا على الله بما لا يقبل جدلا عند المنصف ثم بينما أن الظواهر الكونية تدلنا على أسماء الله وأن أسماءه تدلنا على ذاته فعرفنا بذلك الله عز وجل من خلال النظر في هذا الكون ثم برهنا بعد ذلك على أن ما أوصلنا إليه النظر العقلي في الكون من صفات الله وأسمائه هو الذي قرره القرآن وهو يعرفنا على أسماء الله عز وجل وصفاته فكان ذلك وحده آية على أن هذا الإسلام هو دين الله عز وجل.

وعندما وصلنا إلى هذا أحبتنا أن نقدم مقارنة بين العقيدة الإسلامية في موضوع الألوهية وبين غيرها مما يتبيّن منه سموها بما لا يقاس معها أو عليها غيرها من عقائد موجودة أو موروثة أو معروفة إن في عالم الأديان كما نقلت إلينا أو في اتجاهات الفلسفة.

وقد رأينا أن ننقل هذه المقارنة من كلام العقاد كشهادة من إنسان مستوعب لثقافة الحاضر والماضي وإنسان له شهرة في عالم الفكر والفلسفة والأدب وذلك لشعورنا أن ذلك أقوى في مخاطبة المثقف المعاصر في الأوضاع والظروف التي صدر فيها الكتاب فإن المؤلف لم يكن معروفا وبالتالي فإن كلام العقاد في قضية فيها طابع المقارنة الشاملة سيكون أقوى في تحقيق غرض المؤلف وهو الإقناع في الدعوة إلى الإيمان وهذا وحده كاف لأن يجعلنا نتجاوز بعض الأمور فنقلنا كلام العقاد في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه في مقارنة للعقيدة الإسلامية في باب الألوهية مع غيرها مما يظهر أنها هي وحدها الحق وغيرها باطل وبذلك تم الكتاب ما بين مقدمة وعرض ظواهر وذكر دلالات الظواهر ومقارنات بعد ذلك فاستكمل الكتاب من المعاني ما تفرق في غيره وإذا كان قانون السببية هو أهم مبادئ العقل وإذا كان هذا المبدأ هو

الأساس الذي يقوم عليه الإيمان العقلي والمعرفة العقلية لله فقد أعلنا له فصلاً خاصاً جعلناه بين الظواهر ودللات الظواهر.

وإذا كان التوحيد هو أهم ما خرقته أهواء البشر في باب معرفة الله فقد خصصناه كذلك بفصل جعلناه تالياً لظاهرة الوحدة. وإذا كان وهم الطبيعة قد سيطر على كثير من العقول القاصرة فقد خصصناها بكلام في نفس المكان من هذا الكتاب ومن ثم فقد قلنا في هذا المكان فيما بين الظواهر ودلائلها كلاماً للدكتور حسن هويدى وللشيخ سعيد النورسي نقطع فيه دابر الخرق السفيف لمبدأ السببية العقلي ودابر الخرق لقضية التوحيد وننهى فيه حجاب الوهم حول قضية الطبيعة لقد كان كلامهما رائعاً في هذه الأمور فنقلناه انتلاقاً من قاعدتنا أنه حيثما وجدنا إحساناً عند أحد يخدم تسلسل أبحاث هذه السلسلة أو يخدم مواضيعها فإننا ننطلق مستعينين بذلك أن نكتب نحن فيه.

نقول: إن هذا البحث كاف في تحقيق غرضه في موضوع التعريف على الله عز وجل وبناء الإيمان العقلي ولكن موضوع الألوهية يحتاج إلى كثير من البحوث والكتابة فيه من خلال عقلية إيجابية تقبّل في التاريخ طولاً وعرضًا دراسة كل ما أخرجه الحفريات زماناً ومكاناً لتبرهن على أن التوحيد هو الأصل وإنما طرأ عليه ما طرأ بسبب من الأهواء والتحريف، كما أثنا بحاجة إلى أن نضع كل نقطة فوق حرفها في عملية إقامة الحجة على كل فكر كافر في هذا العالم وفي كل جانب منه من خلال حوار شامل، قالوا ونقول نذكر هذا وذلك كنموذجين على بعض احتياجاتنا في هذا الموضوع. وللتدليل على أن هذا الكتاب يأخذ محله ولكن لا يغني عن غيره مما نحتاجه في عصرنا وفي حوارنا الشامل مع غيرنا.

وأخيراً أقول: لقد كان هذا الكتاب والكتابان اللذان جاءا بعده في هذه السلسلة أثراً عن الشعور باحتياجات المسلمين وهذا الذي جعلنا نحرص على الإنجاز السريع مستفيدين مما كتبه غيرنا مفضلين ذلك على أن نعيش في أحلام الكتابة دون أن نقدم للمسلمين زاداً يحتاجونه سريعاً ولقد كررنا العذر مرة بعد مرة حول قضية كثرة النقول في هذه السلسلة لأننا نعلم أن كلاماً ما يقال أو سيقال في هذا الشأن فأحببنا أن يعرف الناس عذرنا فإما كريم يعرف فيقصر وإما ناقد منصف يتكلم فيذكر نقهء مع العذر ولندخل في البحث.

مدخل إلى معرفة الذات الإلهية

معرفة الله هي المركز الذي يرتكز عليه الإسلام كله وبدون هذه المعرفة يكون كل عمل في الإسلام أو للإسلام غير ذي قيمة حقيقة إذ أنه في هذه الحالة يكون فاقداً روحه وما قيمة عمل لا روح فيه ولكن كيف نعرف الله وما هو الطريق إلى هذه المعرفة إن الجواب على هذا شيء لا بد منه حيث أثنا إذا لم نعرف الطريق لن نصل إلى الغالية التي نطلبها

1- تصور الكافرين للطريق:

أن ناساً في القديم وفي الحديث أنكروا وجود الله لأنهم لم يدركوه بحواسهم متصورين أن هذا هو الطريق إليه ورموا المؤمنين به بأنهم: واهمون وضالون وخرافيون ومشوشون وغير علميين إلى آخر السلسلة الطويلة من السب والهزة والسخرية والازدراء التي يوجهها الكافرون بالله إلى المؤمنين لأنهم آمنوا بالله عن غير طريق الحواس.

إن أمثال هؤلاء الذين يقولون: انهم لا يؤمنون إلا بما أدركته حواسهم يكذبهم واقعهم المادي الذي يعيشونه فهم مثلاً يؤمنون بالجاذبية وقوانينها ولم يشاهدوها بل رأوا آثارها ويعؤمنون بالعقل ولم يروه بل رأوا آثاره ويعؤمنون بالمغناطيسية وقد شاهدوا فقط انجذاب الحديد إلى الحديد دون رؤية الجاذب ويعؤمنون بوجود الإلكترون والنيترون ولم يشاهدوا إلكتروناً أو نيتروناً فواقع أمرهم يدل على انهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم ولكن آثارها هي التي دلت عليهم عليها وهم فيها على يقين لا يخالطه شك وهذا يعني بوضوح أن كثيراً من حقائق الوجود يؤمن بها هؤلاء لاحساسهم بآثارها دون إحساسهم بها ذاتها والعقل وليس الحواس هو الذي عرفهم عليها وإن كانت الحواس هي الآلة التي أعطت العقل أدوات الحكم حتى اصدر حكمه لكنه لو لا العقل ما صدر حكم ولما كانت معرفة بل الحقيقة أن الحواس تعطينا أحياناً صوراً كثيرة وهمية ولكننا نعرف الحقيقة بواسطة العقل وحده فالعصا المغمورة بالماء تبدو مكسورة والخطوط المتوازية على المدى البعيد تبدو غير متوازية والأرقام البيضاء تبدو أكثر من الأرقام السوداء وشعورنا دائماً أننا نسير ورؤوسنا إلى أعلى سواء كنا في القطب الشمالي أو الجنوبي أو على خط الاستواء فمثل هذه الصور تبين لنا بوضوح أن الحواس لو لا العقل لأعطتنا أخطاء بدلاً من حقائق ولو لا العقل لم تكن لنا أي معرفة فهل كان هؤلاء على صواب عندما حصروها المعرفة

كلها بالحواس؟ وهل كانوا منطقين مع أنفسهم عندما رفضوا الإيمان بالله لأنه لم تدركه حواسهم مع انهم بالآثار وحدها آمنوا بكل الحقائق التي لم يشاهدوها والتي تشكل أكبر الحقائق التي عرفها الإنسان قبل اختراع الجهاز الذي يكتشف الحقيقة؟ هل كانت الحقيقة غير موجودة وبالتالي فهل كان إنكاركم لها قبل اكتشاف الجهاز علمياً؟ ثم هل كل حقيقة علمية تكشفها الحواس أو الجهاز؟ أليست الحقائق الرياضية وكثير من الحقائق الكونية لا طريق إليها إلا العقل والتأمل وربط النتائج بالمقدمات. ثم أليست كل قضية تحتاج إلى جهاز خاص يناسبها.

أو لا يكفيكم جهاز العقل للوصول إلى الله ولو أنه كانت لكم قلوب لحدثاكم عن القلب ذاك وكيف أن أهل القلوب عندهم الجهاز الذي يعرف الله حق المعرفة معرفة نووية لا تعدلها أي معرفة أخرى ولكن قلوبكم هذه ميّة ولذلك فإننا لا نطمع في أن تفهموا كلامنا في شأنها ولا نقصد بالقلوب هنا القلوب التي تعرفونها بل هي قلوب أخرى مركزها القلب الصنوبر ولكنها غيره. إن هذا التصور الخطأ لطريق معرفة الله قدّيماً وحديثاً من أكبر العوامل التي أبعدت كثيراً من الناس عن طريق الإيمان الصحيح بالله مع أن مثل هذا التصور خطأ بالداهة لأن العقل ببداهته يحكم أن الله خالق المادة ليس بمادة لأن المادة لا تخلق مادة وإذا كان منتهى إدراك الحواس في عالمنا هذا المادة المحسوسة فقط فلن يكون الله محل إدراكها والذي يبدو أنه ما من أمة من الأمم أو كافر من الكافرين إلا وعندهم هذه الشبهة حول التصور الحسي للطريق إلى معرفة الذات الإلهية، فقد سمعنا في عصرنا هذه أفراداً يجعلون عدم الرؤية سبباً للإلحاد، وسمعنا كذلك دوناً تصرّح بهذا كما صرحت بذلك إذاعة الاتحاد السوفيافي عقب إطلاق قمرها الصناعي الأول إلى الفضاء.

ومن طرائف أوجبة الفطرة على مثل هذا الاتجاه نكتة يقال أنها وقعت في مدرسة ابتدائية حيث وقف معلم ابتدائي يقول لطلاب السنة الابتدائية السادسة أترونني قالوا نعم قال: فإنني أنا موجود أترون اللوح قالوا: نعم قال: فاللوح موجود أترون الطاولة قالوا: نعم قال: فالطاولة إذن موجودة قال: أترون الله قالوا: لا قال: فالله غير موجود فوق أحد الطلاب الأذكياء وقال: وترون عقل الأستاذ فقالوا: لا قال: فعقل الأستاذ غير موجود وهذا الوهم الذي يتمسّك به كثير من الكافرين قديم قدم الكفر كما انه أثراً عن أمراض في النفس والقلب وليس أثراً عن فكر سوي أو عقل مستقيم أو إنصاف في تحقيق فقد حدثنا القرآن الكريم أن الكافرين في كل عصر كانوا

يشترطون للإيمان أن يحسوا عن طريق السمع أو الرؤية وقد ذكر القرآن علل هذا الاشتراط وهي ذاتها الأمراض التي ينتج عنها هذا التصور الفاسد والكلام الخاطئ ويحدد القرآن أسباب هذا الطلب بأنها الجهل وال الكبر والانحراف والظلم

1- الجهل:

قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِنَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مُّتَّلِّقُوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُوْبِهِمْ قَدْ بَيَّنَاهُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ" البقرة : 118 يلاحظ في الآية أنها أشارت إلى أن هذا القول ليس كلام عالمين بل كلام جهال وإن هذا الكلام ليس جديدا بل هو منطق الكافرين قد يما وحديثا وذلك اثر عن تشابه القلوب وأخيراً فإنها تقرر أن الطريق إلى الله آياته أي آثاره التي تدل عليه.

2- الكبر:

قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكَبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا يُشْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُحْرِمِينَ" الفرقان : 21-22 وكما رأيناهم في الآية الأولى يريدون أن يسمعوا نراهم هنا يريدون أن يروا ولكن من هم الذين يريدون أن يروا إنهم الذين يتصورون أن الحياة الدنيا هي كل شيء وليس وراءها إلا العدم وكما ردت الآية الأولى عليهم بطريق غير مباشر كذلك بينت هذه الآية أن عالماً غير هذا العالم وفي قوانين غير هذه القوانين يرى الكافرون الملائكة أما قوانين هذا العالم العادلة فليس فيها للحواس من عالم الغيب نصيب وإذا كان الملائكة في قوانين هذا العالم العادلة لا ترى فلولى إذن أن تكون الذات الإلهية كذلك كما بينت الآية أيضاً أن الكبر وحده هو الذي دفعهم إلى مثل هذا المنطق وليس الوضع السوي للإنسان الذي يرغب بالحق ويسلك طريقه الصحيح.

3- الانحراف:

وآية أخرى تحدثنا عن أحد فراعنة مصر إذ يقول: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلَّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَيْهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظْنُهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدُّ عَنِ السَّبِيلِ" غافر : 36-37

والأية كما ترى تضمنت الرد في قولها وصد عن السبيل فليس ما تصوره فرعون طريقاً يعرف به الله هو الطريق الصحيح بل هو طريق خاطئ.

4- الظلم:

وآية أخرى تحدثنا أن اليهود طلبوا هذا الطلب ظلماً: "وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرًا فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَتَظَرَّفُونَ" البقرة : 55 وفي موضع آخر: "فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرًا فَأَخَذْتُهُمُ الصَّاعِقَةَ بِظُلْمِهِمْ" النساء : 153

وكما رددت الآية الأولى على أمثل هؤلاء بشكل صمني فذلك هنا أشعرتنا بالرد بكلمة بظلمهم وليس العدل هو الذي دفعهم إلى أن يطلبوا مثل هذا الطلب بل الظلم؛ ظلم النفوس للحق إذ تعرفه وتتذكر له وكما طابق قول الكافرين اليوم قولهم قدימה في هذا الموضوع كذلك يطابق تهمتهم في الماضي تهمتهم اليوم ففي الماضي يقص علينا القرآن قصة تهمتهم فيقول : "قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ" الأنبياء : 4-5 فقد اتهموا المؤمنين بالله بأنهم: متوهون وكاذبون وعاطفيون وأصحابهم يتهمون المؤمنين بأنهم: غير علميين وغير صادقين ومشوشون ومخدوعون ولئن سار على هذه الطرق كثير من الناس فليس للمسلم صاحب القلب الكبير أن يقتفي أثر الصالحين فيقع فيما حذر منه الله "أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفُرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" البقرة : 108

2- الطريق إلى الله: آياته:

وإذن فمثل ذلك الطريق لن يصل بنا إلى غاية في موضوع التعرف على الذات الإلهية فتحديد الطريق ومعرفته أساس لكي نصل إلى الهدف. إن الطريق إلى الله هي آثاره التي تدل عليه وهي طريق وحيد والعقل والفكر والعلم شروط أساسية لسلوك هذا الطريق إذ بدون عقل لن نعرف الآية وبدون فكر لن يعرف أصحابها وبدون علم لن تكون معرفة لآية أو ل أصحابها ولعل هذا الكلام مستغرب عند الملحدين إذ انهم يعطون لأنفسهم دائمًا ألقاب: العلمانيين والعقلانيين والأحرار والمفكرين ولكن الدعوى بدون دليل ليس لها أي قيمة علمية وسيكون في كل ما نكتبه في هذا البحث دليل إن شاء الله تعالى على صحة ما قلناه وهدم ما ادعوه: "وَالَّذِينَ يُحَاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجْبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاهِنَةً" الشورى : 16

" وسيأتيك بيان ذلك أما الآن فنقول: المتأمل أدنى تأمل للقرآن يرى أن القرآن يلفت النظر بشكل واضح وواسع العقل والفكر والعلم والآثار وهي الشروط الأساسية لمعرفة الله "قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونَا مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شَرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ إِنَّتُوْنِي بِكِتابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةً مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" الأحقاف : 46 أي هل هناك ذرة من علم تشهد أن غير الله هو الخالق فإذا ما أنكر الناس ربهم فليس ذلك دليلا على العلم بل هو دليل هو الجهل "وَمَنِ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتابٍ مُّنِيرٍ" الحج : 8 / لقمان : 20 ولكنه ليس الجهل المطلق المجرد عن آية معرفة بل هو جهل خاص ذكره الله تعالى بقوله: "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ" الروم : 7 وقوله تعالى: "فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّ عَنِ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" ذلك مبلغهم مِنَ الْعِلْمِ النجم : 30-29

إن الإكثار من ذكر العلم والفكر والعلم في القرآن ظاهرة تلفت النظر لقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" الرعد : 4 وقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" الرعد : 3 وقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ" الروم : 22 وقوله تعالى: "قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" يونس : 101

ومن ثم فإن المتأمل للقرآن يدرك أن الإسلام يفرض على المسلم أن يفك ويفرض عليه أن يتعلم وأن العلم والفكر جزء من شخصية المسلم في الوقت اللذان هما عند غير المسلم شهوة يتسلى بها أو بباب معاش يرتق منه أو هوالية عند بعض الأفراد. وإذا يفرض الإسلام العلم فلأنه بالعلم يعرف الإسلام حقاً قال تعالى: "وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ" سباء : 6

وسندرس في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى آيات الله لنتبين الحقيقة السافرة تلك التي تقول إن الكافرين بالله أضلوا قلوبهم إذ لم يهتدوا إليه وإن المؤمنين هدوا قلوبهم إذا اهتدوا إليه "وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ" التغابن : 11 وأن مثل الكافر الذي لم يشاهد الله بعقله بعد رؤيته آياته كمثل حامل أسفار لا يعرف قيمتها ولا مؤلفها فينسبها إلى المجهول المعذوم وسنرى كذلك إن شاء الله انه ليست قلة الآيات ولا غموضها هي التي أدىت بالكثير إلى الكفر بل الآيات من الكثرة بحيث لا تعد ومن الوضوح بحيث لا تخفي ولكن السر في الإنسان ذاته السر في إعراضه هو عن

الآية في كبره عن الاعتراف بالحق في عدم تعرفه على الحقيقة في انحرافه عن فطرة الإنسان وأخلاق الإنسان في انغلاق قلبه وعماه حتى لو حركته القدرة الإلهية بشكل معجز لبقي مصرأ على الإنكار ويحدثنا القرآن عن أمثال هؤلاء فيقول تعالى: "وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ" الحجر : 14-15 وقال تعالى: "وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ" القمر : 2 وقال تعالى: "وَكَأَيْنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف : 105 وفي هذا المقام نحب أن نسأل: ترى هل الله هو الذي يحتاج إلينا كي نؤمن به أم نحن الذين نحتاج أن نؤمن من أجل أنفسنا؟ والجواب: "فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" آل عمران : 97 وإن فلنحرر أنفسنا من أجل أن نكون أهلاً لرؤيه آيات الله:

1- من الكبر: لأن الله لا يري قلباً متكبراً آياته قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيْرِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ"

الأعراف : 146

2- ولنحرر أنفسنا من الظلم والكذب "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" آل عمران : 86 قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" الزمر : 3

3- ولنحرر أنفسنا من الإفساد في الأرض ونقض العهد وتقطيع أو اصر ما ينبغي أن يصل

قال تعالى: "وَمَا يُصِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" البقرة : 26-27

4- ولنحرر أنفسنا من الغفلة: إن أردنا أن تتكشف آيات الله كلها لنا فإن بعضاً من آيات الله يتكتشف للإنسان بمجرد الفكر إن لم تكن هناك موانع أخرى بمجرد العقل: ومثال ذلك وهذه كل آية في القرآن قد قال تعالى عنها: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَكَبَّرُونَ" الرعد : 3 وقال تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" الرعد : 4 ولكن آيات الله كلها لا تتكتشف لقلب إلا

إذا اجتمع لصاحب فكر مع ذكر "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَاتِي لَوْلَى الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" آل عمران : 190-191

وما أعرض معرض عن الله إلا لغفلة ولا غفلة إلا وراءها لعب ولهم والحياة الدنيا كلها لعب ولهم قال تعالى: "أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ" الحديد : 20

قال تعالى: "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفَلَةٍ مَعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُهْدِثٍ إِلَّا اسْتَمْعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ" الأنبياء : 1-3

5- ولنحر أنفسنا من الإجرام قال تعالى: "كَلَّا بَلْ رَأَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" المطففين : 14 وكذلك قال تعالى: "كَذَلِكَ نَسْكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" الحجر : 12-13

6- ولنحر أنفسنا من التردد في قبول الحق إذا رأينا صريحاً ونقلب أفتئتهم وأيصالهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذر لهم في طغيانهم يعمرون الأنعام : 110 وساعتهنـ فإن آيات الله من الإشراق بحيث تغمر كل جانب قلبك بعد إذ أعدته لتلقى النور ولكن هيئات والقلب قلب شيطان أن يكون أهلاً لهداية الرحمن ذلك أن الضباب الكثيف يمنع أشعة الشمس والعطـب في العين يمنع الرؤـية والمـرض في الأذن يـمنع السـمع وليس الذنب ذنب الماء الفرات إذا وجـده المـريض مـرأـه قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْرُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحذَرُوهُ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَةً فَلَنْ تَمَلِّكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" المائدة : 41

فالسر دائمـاً في الإنسان نفسه قال تعالى: "فَلَمَّا زَاغُوا أَرَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" الصافـ : 5 وأما آيات الله فواضحة بينـة "وَكَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِّنَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ" الأنعامـ : 6 وآيات الله نراها في ثـلـاثـ:

الكون والقرآن والمعجزات والكرامات وقد عبر القرآن عن كل من هذه الثلاثة بأنه آية تدل عليه.

الكون:

قال تعالى: "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقَنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" الذاريات : 20-21
وقال تعالى: "وَكَأَيْنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف : 105

وقال تعالى: "وَآيَةٌ لَّهُمُ الَّلَّا يُنَسِّخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقْرٍ لَّهَا ذَلِكَ نَقْدِيرُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * وَالْقَمَرُ قَدَرَنَا هُوَ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونَ الْقَدِيمَ" يس : 37-39
وقال تعالى: "وَمَنْ آيَاتِهِ خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاحْتِلَافُ السِّنَنِكُمْ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ * وَمَنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاوُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ" الروم : 22-23

القرآن:

"وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوْلَمْ يَكُفُّهُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَلَّى عَلَيْهِمْ" العنكبوت : 50-51
وقال تعالى: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" العنكبوت : 49
وقال تعالى: "وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ" آل عمران : 101

المعجزات:

"وَفِيكُمْ رَسُولُهُ" آل عمران : 101 "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ" القمر : 1-2 "وَيَا قَوْمَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً" هود : 64 "وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةً مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهِيَةً الطَّيْرِ فَأَنْفَخْتُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرِئُهُ الْأَكْمَهُ وَالْأَبْرَصَ وَأَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْيَكُمْ بِمَا تَكْلُونَ وَمَا تَدَخَّرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" آل عمران : 49 ونصوص القرآن تشير إلى أن في الكون آيات كثيرة وليس هو آية واحدة. وفي القرآن آيات وليس فيه آية واحدة فحسب والمعجزات آيات.

إن عشرات الظواهر في الكون كل واحدة منها تدل على الله وعشرات الظواهر في القرآن كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله والمعجزات ظواهر تاريخية كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله وفي كل ظاهرة آلاف الإشارات كل واحدة منها تدل على الله فالمقام الحجة على الناس قياماً كاملاً قال تعالى: "رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَئِلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ" النساء : 165

وقال تعالى: "قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوهَا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" غافر : 50

في هذا الكتاب سنعرض آيات الله في الكون مقيمين الحجة على كل كافر ومعاند أن الله موجود وأن له صفات الكمال والجلال والجمال كلها وفي الكتاب الثاني الذي عنوانه الرسول سنرى بعض آيات الله في القرآن وبعض آياته في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم فكما أن القرآن آية تدل على الله وكما أن في المعجزة بشكل مطلق آية تدل على الله فإن في القرآن في الوقت نفسه شهادة على أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله وكذلك في معجزاته ولذلك فقد أخرنا هذين الموضوعين إلى الرسالة الثانية حيث إقامة الدليل على صحة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالى ولا زالت الكرامات في هذه الأمة تتواتر وكل كرامة في هذه الأمة إنما هي معجزة لرسولها عليه الصلاة والسلام ومن ثم فكل كرامة هي في حد ذاتها دليل على صحة رسالة رسولنا ودليل على أن الله موجود إذ الكرامة كالمعجزة في كونها خرقاً لعالم الأسباب ومن تأمل ما سندكره في هذه السلسلة من هذه الظواهر وهي غيض من فيض فإنه لا يسعه إلا أن يكون مسلماً مسلماً الله ورسوله وبعد إذ تبيّنت لنا ماهية الطريق الموصولة إلى معرفة الله والإيمان به وبعد أن تبيّن لنا خطأ التصورات المنحرفة عن الطريق وبعد أن عرفنا كيفية انتظام الأدلة في هذه السلسلة ونوع الأدلة التي سيعرضها هذا البحث فلنبدأ عرض ماله صلة ببحثنا هذا بأن نستعرض ظواهر الكون التي تدلنا على الخالق العظيم.

الظاهرة الأولى

ظاهرة حدوث الكون

ظاهرة حدوث الكون: أي وجوده بعد إذ لم يكن.

أول ظاهرة تدلنا على الله هي حدوث هذا الكون الذي يدلنا على أن له محدثا وكلما تقدم العلم أعطانا الدليل بشكل أدق وأعمق وأكثر إقناعا على هذه الظاهرة بل ما قدمه العلم من أدلة عليها جعلها في حكم البديهة إذ وضوح الأدلة وتعارضها لم يبق مجالا للشك فيها فقوانين الحرارة وقوانين الإلكترون والطاقة الشمسية قد قدم كل منها دليلاً واضحاً عليها وبتضافر هذه الأدلة يظهر الأمر ظهورا لا يبقى معه مجال للشك هذا عدا عن الأدلة الفطرية والعقلية والقطعية التي ذكرها الربانيون في كل عصر وسنحاول أن نستعرض هذه الجوانب واحدا تلو الآخر لنرى كيف يقدم كل منها الدليل على كون هذا الكون مخلوقاً لخالق.

1- قوانين الحرارة:

يقول ليكونت دي نوي رئيس قسم الفيزياء في معهد باستور ورئيس قسم الفلسفة في جامعة السوربون في كتابه مصير البشرية: إن أحد وجوه النجاح العظيمة التي حققها العلم الحديث ربط قانون كارنوت كلوزيوس بدعى أيضا "بالقانون الثاني في الترموديناميكي" الذي يعتبر مفتاح فهمنا للمادة غير الحية بحساب الاحتمالات وقد ثبتت الفيزيائي الكبير بولتزمان أن التطور غير الحي وغير القابل للانعكاس الذي يفرضه هذا القانون يوافق تطوراً نحو حالات أكثر وأكثر احتمالاً تتصف بازدياد التناقض وتوازن القدرة وهكذا فإن الكون يميل نحو التوازن حيث تزول جميع عدم التناقضات الموجودة في الوقت الحاضر وتقف جميع الحركات ويسود الظلام التام وقد عبر إدوار لوزكيل عن هذا القانون وكيف أنه يثبت به أن لهذا الكون بداية بما يلي:

وقد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إله أزلي ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي أي أزلية الكون فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية ومعنى ذلك أن الكون يتوجه إلى درجة تتساوى فيها

حرارة جميع الأجسام وينصب منها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون لذلك فإننا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود وهذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية وهي بذلك تثبت وجود الله وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ولا بد له من مبديء أو من محرك أول أو من خالق هو الإله واستدل فرانك الان عالم الطبيعة البيولوجية على عدم أزلية الكون كذلك بنفس القانون يقول: كثيراً ما يقال إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف وجوده ونشأته؟ هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال:

فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده.

وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم.

وإما أن يكون أبداً ليس لنشأته بداية.

وإما أن يكون له خالق.

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة الإحساس والشعور فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكتنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهم من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة فالرأي الذي يدعى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي وأنه مجرد صورة في أذهاننا وأننا نعيش في عالم من الأوهام لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال.

أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم فهو لا يقل عن سابقه سخفاً وحمقاً ولا يستحق هو أيضاً أن يكون موضعًا للنظر أو المناقشة. والرأي

الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشتراك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون وذلك في عنصر واحد هو الأزلية وإذا فنحن إنما ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإنما أن ننسبها إلى الله هي يخلق وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما في الآخر ولكن قوانين الدينамиكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجاً وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة

باللغة الانخفاض هي الصفر المطلق ويومئذ تتعدم الطاقة وتستحيل الحياة ولا مناص عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت أما الشمس المستمرة والنجوم المتوجهة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذن حدث من الأحداث ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلية ليس له بداية علیم محيط بكل شيء قوي ليس لقدرته حدود ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه فالقانون إذن يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزليا لأن الحرارة لا يمكن أن تتبع تلقائيا في الكون بعد برونته ولو كان أزليا لكان باردا.

2- قوانين الحركة الإلكترونية:

والشهادة الأخرى التي تدل على حدوث الكون نجدها في كل ذرة من ذرات الوجود على الإطلاق وذلك أن ذرات الكون كلها مؤلفة من جزيئات كهربائية سالبة وموسمة. الموجة يطلق عليها اسم البروتون والسلبية يطلق عليها اسم الإلكترون. وأنوية الذرات إلا ذرة الهيدروجين فيها زيادة على ذلك شحنة معتدلة تسمى نيترون والبروتون والنويترون يشكلان نواة الذرة بينما الإلكترونات تشكل الكواكب السيارة لهذه النواة وهي تدور حولها بسرعة هائلة بحركة دائيرية إهليجية وبسبب هذه السرعة الهائلة في حركة الإلكترون يبقى الإلكترون متحركا هذه الحركة إذ لو لا هذا الدوران لجذب كتلة النواة كتلة الإلكترون وعندئذ يكون العجب، إذ في هذه الحالة يصبح جرم كالكرة الأرضية حجم بيضة الدجاجة فالفراغ كبير جدا في عالم الذرة فكتل الجزيئات لا تأخذ إلا حيزاً صغيراً جداً من فراغ الذرة الواسع وذلك أن البعد بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبياً. من هذه الدراسة الموجزة للذرة نصل إلى الحقائق التالية:

- 1- أن الإلكترونات في أكثر ذرات الوجود إن لم يكن في كلها في حركة دائمة دائيرية.
- 2- وأنه ليس هناك أي دليل في الوجود يدل على أنه يمكن أن يكون هناك وضع آخر للإلكترون كان عليه أولا ثم انتقل إلى هذه الحالة إن لم نحكم باستحالة تصور آخر أقدم من

هذا الوضع إذ لو كان لاحتمنا إلى مؤثر جعل الإلكترونات الوجود تتحرك بعد خمود فتوسعة
الذرة بعد ضيق

3- أن في هذا الكون كله مؤلف من نفس الذرات التي عرفنا خصائصها هنا بل من نفس العناصر وهذه الحركة التي نجدها في الإلكترون نجدها في كل جرم في الفضاء وبعد هذه الحقائق نقول: إن الشيء الدائري لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته. ولما كانت الإلكترونات والأجرام كلها في حركة دائيرية ولما كانت هذه الحركة غير مستأنفة كما يبدو فإذا لا بد أن تكون هناك بداية زمانية ومكانية لحركة الإلكترون وهذه البداية في الحقيقة هي بداية وجود الذرات نفسها وبهذا تكون قد وصلنا إلى أن لهذا الكون بداية ونشأة وخلالها من العدم إذ العدم لا ينتج عنه وجود.

4- الطاقة الشمسية: نحب أولاً أن نذكر كلمة توضح معنى الأزلية إنه لو وضعنا الرقم 1 وأمامه أصفار ممتدة منه إلى محيط الكرة الأرضية فإن هذا الرقم الكبير من السنين إنما يمثل جزءاً كالصفر تقريباً بالنسبة إلى اللانهاية أو اللابداية ونفس الشيء لو كان الرقم 1 أمامه أصفار من أول الكون إلى نهايته فإن هذا الرقم لا يمثل إلا جزءاً من اللانهاية يشبه الصفر وكذلك هو بالنسبة للأزل فالذين يقولون بقدم المادة إنما يعطونها هذا المعنى وهذا الذي تثبت الظواهر كلها استحالاته حول خلافه والظاهرة هذه كالتى سنتكلم عنها تمثل إحدى هذه الظواهر: من أين تأتي الشمس بطاقتها؟ وكيف تحافظ على حرارتها؟

وعندما نقول: الشمس وإنما نعني كل نجوم هذا الكون فنجوم هذا الكون كلها شموس صغيرة وبعدها عنا وشمسنا هذه نموذج عنها والسؤالان اللذان ذكرناهما مهمان جداً لأن كل الشموس في حالة عطاء دائم فهي تعطي دائماً إشعاعاً حرارياً يشكل طاقة لقد أضيء معرض شيكاغو الذي أقيم عام 1933 بكماله بواسطة مفتاح ضخم يدار بواسطة شعاع ضئيل كان قد انبث من نجم السمك الرامح منذ أربعين عاماً مما سبب هذه الطاقة في الشموس؟ أجب على هذا السؤال أكثر من جواب ولكنها لم تكن مقنعة حتى كان الجواب الأخير وهو إن ذرات هذه الشموس تتحطم في قلبها المرتفع الحرارة جداً وبواسطة هذا التحطّم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة

الحرارية التي لا مثيل لها وكما هو معلوم فإن الذرة عندما تتحطم تفقد جزءاً من كتلتها حيث يتحول هذا الجزء إلى طاقة وإن كل يوم يمر على أي شمس معناه فقدان ولو جزء بسيط من كتلتها.

إن الشمس مثلاً تفقد كل يوم كذا كيلو غرام ومتلها بقية النجوم فلو كانت هذه الشموس قديمة أزلية فهل يمكن أن تكون في وضعها الحالي أو أنها تكون قد استفدت وانتهت أمرها والأزل كمارأينا هو الأزل ونحن لم ننس أن قسماً من هذه الطاقة التي تصرفها الشموس يتحول إلى مادة ولكن نسبة التحول إلى غير التحول تبقى ضئيلة كنسبة النجوم إلى الفضاء وكلامنا ليس في جزء من الكون يفقد ويغدو فقد يوجد مثل هذا التوازن أحياناً ولكن كلامنا في الكون كله إذ ما دام الفضاء عظيماً فحتى سيعطي قسم كبير من هذه الطاقة ولا يتحول: إلى مادة وما دام هناك شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكله المادي بشكل ما من جديد فإن تصور أزلية الكون القحالي مستحيلة إذ شعاع واحد على مدى الأزل كاف لاستفاد طاقة الوجود كله أما الكلام بأن الكون كله كان في الأصل طاقة فتحولت إلى مادة وهو الآن مادة يتحول إلى طاقة ومن ثم سيكون مادة وهكذا فالمحالات فيه واضحة ذلك أن الطاقة كطاقة إنما تظهر إذا وجدت مادة ما تقوم بها فالطاقة تحتاج إلى ذات وبدون ذات تكون أشبه بمعدوم أو بتعبير العلماء القدامى: الطاقة عرض تحتاج إلى جوهر لظهور فيه إشعاع الشمس عندما يصادف الأرض مثلاً تأخذ ذرات الأرض حرارته وبهذا تصبح ذرات الأرض مشحونة بالطاقة الحرارية ولكن إذا لم يصادف هذا الشعاع مادة فهل سيتحول نفسه إلى ذرة مادية على الأقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن وبهذا يتضح بما لا شك فيه أن هذا الكون ليس قديماً وأن له بداية وأنه لا يتصور وجوده لو لا أن له خالقاً هذا الخالق هو ابتدأ خلقه ووجوده بعد إذ لم يكن.

وقد عبر علماء التوحيد القدامى عن قضية حدوث الكون وابتدائه من العدم بقدرة الله على الشكل التالي: نظروا إلى الكون فوجدوا ما فيه على نوعين: نوع يقوم بذاته ونوع لا يقوم بلا ذات فمثلاً الجسم يقوم بذاته لكن المرض لا يكون بلا جسم والذرة تقوم بذاتها ولكن الحرارة لا تكون بلا ذات وسموا ما يقوم بذاته الجوهر وما لا يقوم إلا بالجوهر عرض فالذرة جوهر وحرارتها عرض والجسم جوهر والصحة عرض وقلوا: إن الجوهر لا ينفك عن الأعراض فما رأينا جوهراً إلا ويلازمه عرض ما وكل عرض حادث فالظلماد حادث فمنذ فترة كان قبله نهار

والنهار حادث فمنذ فترة كان قبله ليل وحرارة الذرات مهما كانت فإن لها بداية وإذا كان لا جوهر إلا بعرض فلا جوهر إلا وله بداية فالكون جواهره وأعراضه كلها حادث وليس أزليا

مناقشة سؤال: ويثير الناس عند الوصول إلى هذه الحقيقة السؤال التقليدي: من خلق الله الذي خلق الخلق وفي مضمون السؤال الجواب عليه فالله حق وكونه خالقا يجعلنا لا نتصور أنه مخلوق إذ لو كان مخلوقا لما استطاع أن يخلق إلا ترى أن الإنسان مثلا مع كل ما أوتي من إمكانيات لم يستطع أن يخلق شيئاً من عدم فكيف نتصور خالق هذا الكون مخلوقا.

يقول الأستاذ البنا رحمه الله مجيبا هؤلاء الذين يسألون هذا السؤال: إذا وضع كتابا على مكتبه ثم خرجت من الحجرة وعدت إليها بعد قليل فرأيت الكتاب الذي تركته على المكتب موضوعا في الدرج فإنك تعتقد تماما أن أحدا لا بد أن يكون قد وضعه في الدرج لأنك تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه احفظ هذه النقطة وانتقل معه إلى نقطة أخرى لو كان معك في حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسي ثم خرجت وعدت إلى الحجرة فرأيته جالسا على البساط مثلا : فإنك لا تسأل عن سبب انتقاله ولا تعتقد أن أحدا نقله من موضعه لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه ولا يحتاج إلى من ينقله احفظ هذه النقطة الثانية ثم

اسمع ما أقول لك: لما كانت هذه المخلوقات محدثة ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها بل لا بد لها من موجد. عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى ولما كان كمال الألوهية يقتضي عدم احتياج الإله إلى غيره بل إن من صفاته قيامه بنفسه عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته وغير محتاج إلى من يوجده وإذا وضع النقطتين السابقتين إلى جانب هذا الكلام اتضحت هذه المقام والعقل البشري أقصر من أن يتورط في ذلك وقد كان علماء التوحيد يرون أن مثل هذا السؤال لا معنى له. فيقولون: إذا سرنا مع السائرين شوطا عندما سألوا: من خلق الله فقلنا لهم: غيره ومن خلق غيره غيره ومن خلق الثالث آخر وماذا بعد ذلك فإنه وبالتالي لا بد أن نصل في النهاية إلى ذات لا بداية لها ولا خالق هذه الذات التي لا بداية لها ولا خالق هي الذات الإلهية وكل جواب في الوسط لا معنى له في النهاية.

فهناك خالق ومخلوق ولا يمكن أن يكون للخالق خالق والحقيقة أن يسأل مثل هذا السؤال إما هازل والجواب عليه إعراض عنه أو متوهם والجواب عليه إزالة سبب التوهם وسبب توهمه أنه رأى كل شيء موجود محتاجاً إلى خالق فتصور أن هذا القانون يسري على الخالق نفسه وهذا خطأ فليس شرطاً حتمياً أن تتطبق على الصانع نفس القوانين التي يخضع لها المصنوع إذ المصنوع والقوانين التي يخضع لها من صنع الصانع وفي حدود العالم نفسه نجد أن ما صنعه الإنسان لا تسرى عليه حالات الإنسان فالإنسان يمشي تلقائياً ويريد ويعلم ويدرك ويفكر ويأكل ويشرب ويمس ويشتهي فهو شيء وما يصنعه شيء آخر وكل خصائصه وهذا الكون شيء وخلقه شيء آخر وللكون خصائصه وللذات الإلهية صفاتها وفي غالب الأحيان يكون صاحب السؤال من الذين لا يؤمنون بالله

والجواب على مثل هذا أن نقول له: إننا جميعاً متلقون على أن هناك شيئاً قدِّينا لا بداية له ولا خالق أنت تقول: إن هذا الشيء القديم هو المادة ونحن نقول هذا الشيء القديم هو الله وقد أثبتت العلوم كلها أن المادة غير قديمة فلم يبق إلا أن يكون الله هو القديم وقد ذكرنا في الصفحات السابقة بعضاً مما قالته العلوم وننقل الآن أقوالاً أخرى لبعض علماء الطبيعة في نفس الموضوع مختتمين بها الحديث عن هذه الظاهرة يقول جون كوشران: تدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة وعلى ذلك فإن المادة ليست أبداً ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية إذ أن لها بداية وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطبيئة أو تدريجية بل وجدت بصورة فجائية و تستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد ويقول ايرفنج ولIAM: فعلم الفلك مثلاً يشير إلى أن هذا الكون بداية قديمة وأن الكون يسير إلى نهاية محتملة وليس مما يتافق مع العلم أن نعتقد بأن هذا الكون أزلٍ ليس له بداية أو أبداً ليس له نهاية فهو قائم على أساس التغيير هذا كلام هؤلاء على كفرهم إذ الإيمان بالله له مستلزمات لم يقم بها هؤلاء إلا أن علمهم بقوانين الكون أو صلتهم إلى هذه الحقيقة الخالدة والقائمة في كل فطرة والبداهة عند كل عقل مستقيم والله عز وجل يقول: "أَمْ خَلُقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ" الطور : 35 . "أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ" الطور : 36

الظاهره الثانيه

ظاهره الإرادة

إن هناك فرضيات ثلاثة يمكن أن تذكر أثناء الحديث عن الكون وما فيه؛ كتعليق لوجوده على ما هو عليه :

1- أن يكون من صنع الله

2- أن يكون من صنع ذرات المادة وأجزائها وعناصرها عن قصد وإرادة وعنایة منها أي أن عناصر المادة الأصلية فكرة دبرت واتفقت على صنع تتواعات هذا العالم بهذه الأشكال والصور التي نراها

3- أن يكون الكون بما فيه قد يكون بطريق المصادفة أي أن الجزيئات الكهربية التي منها تتتألف ذرات هذا الكون وجدت مصادفة وكان بعضها سالباً والآخر موجباً والأخير معتملاً مصادفة وكل جزء سالب التقى بجزيء موجب مصادفة ومجموعة متدرجة من الواحد إلى 238 من الجزيئات الموجبة شكلت مع بعضها نوى مصادفة والجزئيات السالبة أخذت تدور حول هذه النوى مصادفة وكان بين النواة والكهارب فراغات لولاهما لكان جرم الأرض بحجم البيضة مصادفة وجود المدارات الثابتة لكل ثمانية كهارب كان مصادفة وجود إمكانيات التحاد بين العناصر لتشكل مركبات جديدة بسبب نقص الالكترونات عن الثمانية في غلافات بعض الذرات كان مصادفة واتحاد العناصر واجتماعها لتكون هذه الأجرام الهائلة من الشموس كان مصادفة والحرارة الموجودة في الشموس والإشعاع والترتيب كان مصادفة ثم الأرض بوضعها الحالي الصالح للحياة: قشرتها هواها مأواها جبالها حجمها وجدت مصادفة ثم الحياة بتتواعها وتركيبها وأجهزتها المعقدة وجدت مصادفة ثم الإنسان: بعقله وفكه وتركيبيه وروحه وأخلاقه واستعداداته الخيالية والتصويرية والعلمية وإمكاناته للتسلية كل هذا وجد مصادفة هذه افتراضات ثلاثة لا يمكن أن يفترض غيرها لتعليق وجود هذا الكون على ما هو عليه.

أما الفرض الأول: فيقول به المؤمنون وأما الفرض الثاني فلا يقول به أحد وأما الفرض الثالث فيقول به الماديون وإن فنحن أمام فرضين فقط إما أن يكون هذا الكون بتواعاته من صنع صانع له إرادة طبقاً لمبدأ السببية وإما أن يكون نتيجة المصادفة ومهمتنا أن نرى أيّاً من الفرضين يقوم عليه البرهان وأيّاً منها لا دليل عليه ولا برهان؛ إذ أن المصادفة في حد ذاتها

لا ريب أنه يميل إلى تصديق الخبر الأول ولكنه أمام صدق المخبرين يرى أن المصادفة ممكنة فلا يجزم بترجح أحد الخبرين على الآخر ولكن إذا رأى هذا الرجل إبرة ثالثة مغروزة في شق الثانية أيضاً فهل يبقى عدم الترجح على حاله؟ الحقيقة أنه يتقوى ترجح القصد على المصادفة ولكن لا يزال للمصادفة محل ولو كان ضعيفاً فإذا ما رأى الرجل أن هناك عشر إبر كل واحدة منها مغروزة في ثقب الأخرى التي تليها فهل يبقى ترجح فكرة القصد على وضعه السابق الحقيقة أن ترجح فكرة القصد يتقوى لدرجة تكاد تتلاشى فيها فكرة المصادفة وكلما ازداد تعقيد المسألة أكثر دنت فكرة المصادفة من الاستحاللة.

فمثلاً لو قلنا: إن الإبر العشر مرقمة بخطوط لكل واحدة منها رقم من الواحد إلى العشرة وقيل لنا في الخبر: إن الصبي الأعمى أعطى كيساً فيه هذه الإبر العشر مخلوطة مشوشة وإنه كان يضع يده في الكيس ويستخرج الإبر تبعاً على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ويلقيها اعتباطاً فتقع الأولى في شق المغروزة في اللوح وتقع الثانية في الأولى والثالثة في الثانية والرابعة في الثالثة وهكذا حتى أتم إدخال الإبر العشر بعضها في بعض على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ثم إذا تعقدت المسألة أكثر بحيث جعلنا بدل الصبي الهواء أو الماء أو العدم فماذا يكون موقف الإنسان في هذه الحالة هل يصدق خبر من يقول بالمصادفة أو خبر من يقول أن هناك ذاتاً ذات إرادة وبصر هي التي فعلت هذا؟ لا شك أن الإنسان العاقل يرجح ترجيحاً مطلقاً بالبداهة أن الثاني هو الصادق وسبب هذا الترجيح يعود إلى أن للمصادفة قانوناً رياضياً عaculaً لا يمكن الخروج عنه وهو: أن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة فإذا كان التزاحم بين شيئين متكافئين يكون حظ

المصادفة بنسبة واحد ضد اثنين وإذا كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عشرة وذلك لأن كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخر بدون أقل تفاضل طبعاً وإلى هنا يكون الحظ في النجاح قريباً من المتزاحمين حتى لو كانوا مائة أو ألفاً ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخماً هائلاً يصبح حظ المصادفة في حكم العدم بل المستحيل ولإدراك المسألة بشكلها الواسع الواضح فلنقرأ هذا المثال:

افرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها فجاءت هزة أرضية قلت صناديق الحروف وبعثرتها وخلطتها ثم جاءك منضد الحروف يخبرك بأنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني فالقضية تكون في هذه الحالة قابلة للتصديق جداً ولو قال لك: إن الكلمات العشر ألقت جملة مفيدة كاملة تستبعد ذلك ولكن لا تراه مستحيلاً ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكماليها تشكلت وكانت عند اختلاطها بالمصادفة كتاباً كاملاً من 500 صحيفة يتضمن قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة منسجمة بألفاظها وأوزانها لا شك أنك في هذه الحالة ترى الاستحاللة بدھیة وواضحة والسبب في رؤية الاستحاللة يعود إلى قانون الصدفة نفسه فإذا علمنا أن نسبة خروج الأرقام العشرة متسلسلة في مسألة الإبر هو 1 إلى العشرة مليارات ولو كانت الإبر 12 لكان احتمال خروجها متتابعة واحد إلى ألف مليار ولو كانت 21 لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار فكيف بالتزاحم الذي يجري بين 500 ألف حرف لتكون 125 ألف كلمة تقريباً بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبداً إن النتيجة هائلة لدرجة أن نسبة الاحتمالات في حدوث ذلك لا تحيط بها أرقام اللغة ولكي نعرف معنى كلمة 500 ألف وحرف 125 ألف كلمة و 28 حرفاً هجائي لندرس هذا النقل العلمي.

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون والهيدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد 40000 ذرة ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة 92 عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزئياً من جزيئات البروتين يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات

الجزيء الواحد وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تنتهيًّا عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة 1 إلى 10 أي بنسبة واحد إلى الرقم 10 مضروباً في نفسه 160 مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وبينجي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.

يقول ليكونت دي نوي: يجب أن تتصور حجماً أكبر من الكون الأنشتايني بسكسنيليون سكسنيليون مرة ويطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 243 مرة من السنيين 10 أس 243 إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات إنها إذا تألف بطريقة أخرى غير التي تكون غير صالحة للحياة بل تصير في بعض الأحيان سومما وقد حسب العالم الإنكليزي ج . ب ليتر الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين 10 أس 48 وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتيناً واحداً. ولقد ذكرنا هذا النص لنرد مباشرةً على من يقول إن مالاً يحدث في هزة واحدة يمكن أن يحدث في غيرها إلى ملايين الهرات لنبين الزمن الهائل الذي يحتاجه لتكوين جزيء واحد فيه خمسة عناصر مع ملاحظة أن أقصى تقدير لعمر الكون خمسة بلايين سنة خمسة عناصر في جزيء واحد يمكن أن يكون تشكيلاتها 10 أس 48 نوع فكيف بـ 28 حرفاً هجائياً تريد أن تشكل قصيدة مؤلفة من 125 ألف كلمة مجموع حروفها 500 ألف حرفاً بتسلاسل معين بفكر معين بنظم معين وعلى ضوء هذا الذي ذكرناه نذكر كلمات علماء التوحيد المسلمين في هذا الموضوع فإن لها علاقة وثيقة بنظرية الاحتمالات للوصول بالنتهاية إلى المراد. يتحدث علماء التوحيد عن الكون كحدثهم عن كل الممكنات التي يمكن أن تكون ويعددون هذه المungkinات فيقولون:

الم_____ كز_____ ات المتقابلات
أزم_____ ة أمك_____ نة جهات
وجودنا والعدم الصفات
كذا المقادير روی الثقات

إذا كان هذا الكون من الممكنات فكل ممكناً يمكن أن يكون موجوداً ويمكن أن يكون معدوماً ويمكن أن يكون على صفة ويمكن أن يكون على صفات كثيرة لا تعد ويمكن أن يكون في زمان ويمكن أن يكون في أزمنة أخرى ويمكن أن يكون في مكان ويمكن أن يكون في أمكنة أخرى ويمكن أن يكون بمقدار ويمكن أن يكون بمقادير أخرى وبالتالي فكل جزء من أجزاء هذا الكون تطبق عليه هذه المعاني فإذا كان من بين هذه الممكنات كلها يختار دائماً واحد هو الأحكم والأحسن والأكثر نظاماً ولو كان غيره لكان الخلل والفوضى فلا بد إذن من وجود إرادة علياً رجحت أحد وجوه الاحتمال والمكان وبعد هذا كله وقبل أن نصوغ مسألتنا في صيغتها الأخيرة نقول: إن المسألة في موضوع الكون أعتقد بكثير من المثالين اللذين ضربناهم ففي مثل الطفل والإبر أو مثل المطبعة والحرروف. الإبر موجودة بثقوبها بإمكانية الغرز فيها ذراتها متألفة مع بعضها على ترتيب معين من معدن معين. والطفل موجود وعنه إمكانية الرمي وله إرادة تتوجه حتى يرمي وإن كان أعمى. وحرروف المطبعة موجودة وهذا حرف كذا وذلك حرف معين وذراتها مجتمعة حتى تكون هذا الحرف موجودة بجانب بعضها ومصفوفة في صناديقها وهناك شيء اسمه هزة أرضية لها قوانين. أما في موضوع الكون فإن القضية من التعقيد لدرجة لا تستطيع أن تحبط بها عقول البشر كافة مما يجعل الصدفة مستحيلة التصور في حد ذاتها بل الواقع.

ونبدأ الآن في صياغة المسألة: هذا الكون مؤلف من عناصر واحدة: بنجمته وشمسه و مجراته وأرضه يبلغ عدد هذه العناصر أكثر من مئة وهذه العناصر نفسها عبارة عن شحنات كهربائية بعضها موجب والآخر سالب وبعضها معتدل ويسمى الموجب البروتون والسلب إلكترون والمعتدل نيوترون وعدد الإلكترونات في مدار الذرة الخارجي يكون مطابقاً لعدد البروتونات التي في نواتها فإذا كان في نواتها بروتون واحد كان في المدار إلكترون واحد كما في الهيدروجين وإذا كان في النواة بروتونان كان في المدار إلكترونان وهكذا يتدرج العدد واحد من أخف العناصر وزنا ذرياً إلى أثقلها وهو الأورانيوم وبهذا التعادل العجيب بين الإلكترونات السالبة والبروتونات الموجبة تتعادل كهربائية الذرة أما النيوترونات المحايدة فإن عددها في نواة الذرة قل أو كثر لا يتعادل مع عدد الإلكترونات واختلاف العناصر أثر عن اختلاف عدد البروتونات والإلكترونات في ذرة كل منها فالفارق بين الهيدروجين والأورانيوم؛ أن الأول فيه بروتون واحد وإلكترون واحد بينما الأورانيوم فيه 238 بروتون و238 إلكترون والعناصر هذه

التي يتشكل منها الكون كله وهي نفسها موجودة تقريبا في كل جرم فنفس العناصر الموجودة في الأرض موجودة في الشمس وكذلك في كل نجم موجود في هذا الفضاء وإن فكل هذه المجموعة من العناصر تجتمع مع بعضها بكتل عظيمة لتشكل جرما وكل جرم له نفس القوانين التي للأجرام الأخرى وهذه الأجرام كلها لها مداراتها المنظمة لكل مداره الذي لا يصطدم فيه مع أي جرم آخر رغم السرعات الهائلة التي يسير فيها حتى إن احتمال اصطدام نجم مع آخر كاحتمال اصطدام سفينتين في المحيط الهندي والأخرى في المحيط الأطلسي وشمسنا نحن واحدة من هذه الأجرام التي لها نفس خصائصها وقوانينها ويتبع شمسنا كواكب سيارة إحداها الأرض التي نعيش عليها والتي ظهرت فيها الحياة ثم:

1- لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين ولما أمكن وجود الحياة.

2- ولو كان الهواء أقل ارتفاعا مما هو عليه فإن بعض الشهب التي تحرق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق.

3- ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي لكنها تجمدنا ولو أنها زادت بمقدار النصف لكنها رماداً منذ زمن بعيد.

4- ولو كان قمرنا يبعد عنا 20000 ميلاً بدلاً من بعده الحالي ولم لا وقمر المريخ يبعد عنه 60000 ميل لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأرضي تغمر مرتين في اليوم بما متذوق يزيح الجبال نفسها.

5- ولو كان لياناً أطول مما هو عليه الآن عشر مرات لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار وفي الليل يتجمد كل ما نبت على الأرض.

6- ولو كان الأوكسجين بنسبة 50 بالمئة أو أكثر من الهواء بدلًا من 21 بالمئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لا بد أن تلتهب الغابة كلها ولو كانت نسبة الأوكسجين 10 بالمئة لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم.

7- ولو لا المطر لكان الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها فولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة ولو لا أن الماء يتبخّر بشكل يخالف تبخّر الملح لما كانت حياة ولو لا أن البخار أخف من الهواء لما كانت الحياة.

8- ولو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفنت وتتعذر بعد ذلك الحياة على الأرض حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد ولو لا أن الكلور يتحد مع الصوديوم لما كان ملح وبالتالي ما كانت حياة.

9- ولو كانت الأرض كعطارد لا يدور إلا وجها واحدا منه نحو الشمس ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس أو بتعبير آخر لو كان قسم من الأرض ليلا دائمًا والآخر نهارا دائمًا لما عاش أحد حيث الليل قائم أو النهار دائم ولا كانت حياة.

10- ولو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة فمن أين تلتقي الذرات وجزيئات الذرات ومن أين تكون الشمس شمسا والأرض أرضا ولو كانت فمن أين تبقى في مكانها الحالي ولو بقيت فكيف تكون الحياة وكيف يسير الإنسان.

11- وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الأرض صغيرة كالقمر أو حتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ولصارت الحرارة بالغاً حد الموت.

12- ولو كانت الإلكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تتعدم الفراغات لكان الكره الأرضية بحجم البيضة فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره وعندما تكون المسألة كذلك يتغير كل ما نشاهده الآن على فرض وجود جرم بحجم الأرض بدون فراغات بين جزيئات ذراته.

13- ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات إن مواعِق الإلكترونات في غلاف الذرة أي في المدار الخارجي تتنظم في ترتيب معين فهي لا تزيد عن ثمانية إلكترونات إلا في المدار الأول فإنه لا يتسع لأكثر من إلكترونين فإذا بلغ عدد الإلكترونات في المدار الأخير الثمانية يفتح مدار آخر فمثلاً إذا كان للعنصر أحد عشر إلكتروناً اتخذ اثنان المدار الأول والمدار الثاني يتسع لثمانية فقط فيتخذ الإلكترون المتبقى مداراً ثالثاً وهكذا بحيث لا تزيد إلكترونات المدار الخارجي عن ثمانية علماً بأن بعض المدارات الداخلية تتسع لأكثر من ثمانية إلكترونات واتحاد العناصر بعضها يتماشى على أساس هذا الترتيب ذلك أن اتحاد العناصر يتم بواسطة الاتحاد بين إلكتروناتها فإذا كان عدد الإلكترونات المدار الخارجي للعنصر أقل من ثمانية فإنه يستطيع أن يتحد مع عنصر آخر فالذي في مداره الخارجي سبعة يتحد مع الخارجي إلكترونات أما الذي في مداره الخارجي ثمانية فهو خامل ولا يستقبل إلكتروناً واحداً.

14- ولو لا قوانين الحرارة لما بردت الأرض ولما كانت صالحة للحياة.

15- ولو لا الجبال لتتأثرت الأرض ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة.

16- ولو لا أن في الأرض أرزاقها لما استمرت الحياة.

هذه كلها مقدمات للحياة إنها مقدمات أوصلت إلى نتيجة وكل مقدمة من هذه المقدمات لا يمكن أن تكون مصادفة في حساب الاحتمالات إلا بنسبة 1 إلى أرقام خيالية جداً وإننا نرى أن كل مقدمة من مقدمات الحياة في هذا الكون يمكن أن تكون على شكل ملابس الأشكال الأخرى ولكن

واحداً فقط من هذه الممكّنات هو الذي اختبر والمقدمة الثانية يمكن أن تكون على ملابس الاحتمالات. وبتضارف هذه المختارات من بين هذه الممكّنات كلها وجد الجو المناسب للحياة ثم كانت حياة بأنواعها وأجناسها وتعقيداتها فهل يمكن تعليل هذا كله بغير الإرادة التي ترجح وجود ممكّن على ممكّن آخر. إنها الإرادة فقط.

ولنعد مرة أخرى إلى ما قاله علماً علينا من قديم: إن كل شيء في هذا الوجود يمكن أن يكون على صفة ويمكن أن يكون في جهة وأن يكون في جهة أخرى ويمكن أن يكون في مقدار ويمكن أن يكون في مقدار آخر وإرادة الله وحدها هي التي يعلل بها ترجيح أحد وجوه الاحتمال حتى كان هذا الكون على أتم نظام وأكمله وكل شيء فيه على أجمل ترتيب وأروعه

وأخيراً:

إن الذين يقولون بأن حوادث هذا الكون كلها وليدة الصدفة إنما يعطون لهذه المصادفة علماً محيطاً وإرادة كاملة وقدرة مطلقة تعلم وترى وتقدر وهي في كل ذلك تعمل بحكمة أكثر مما لو اجتمعت عقول البشر جميعاً بنسبة ذكاء لا متناهية وإن بداهة العقل تحكم أنه حيث وجدت الإحكام كان العلم والإرادة والقدرة والحياة حيث وجدت هذه الصفات كانت الذات التي تقوم بها هذه الصفات إن القلم الذي تكتب به والذي تشعر أنه أعد خصيصاً لكي تكتب به يد الإنسان ومخزن الحبر الذي أعد فيه لغاية والغطاء والتقب الموجود فيه اللذان أعداً لحكمة والنحافة التي تعلقه بها في جيب سترتك وتجويف إبرة الكتابة وهذا العظم الذي فيها بخطوطه ذات الفائدة هذا القلم الذي فيه هذه الأشياء مجتمعة لو حاول إنسان أن يقنعك بأنه وليد مصادفة وليس وليد علم الإنسان وإرادة الإنسان وقدرة الإنسان وحياة الإنسان وذات الإنسان فإنك لا شك تتحمّله أو تجهله فكيف يخطر ببال أن الإنسان هذه الآلة الضخمة والمعلم العظيم صاحب جهاز الهضم وجهاز الدوران وهذه الشجرة ذات الجذور والأوراق والساقي بنسغها الصاعد والهابط وما يكون فيها من تنفس وتفاعلات وتشكلات وإنتاج زهر وثمر معمل أدق تركيباً من كل ما صنعه عقل الإنسان وعالم الذرة بما فيه من طاقات وتحركات وتركيبيات وما ينتج عنه من تفاعلات وآلاف الأمثلة من أمثال هذا وملابساته كل هذا وليد مصادفات وهل يكون العقل الذي يقول بهذا علماً اتجاه وهو يتحدى كل قواعد العلم

قال تعالى : " قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ " عبس : 17 " أَوْلَمْ يَرَ إِنْسَانٌ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ " يس : 77

الظاهره الثالثة

ظاهره الحياة

إن القصد من دراسة هذه الظواهر هو الإيمان بالله والوصول إلى العلم به بتحكيم قواعد العقل وعندما ندرس ظاهرة ما فإننا نريد دراسة أمهاط القضايا التي تشير إلى الله لأن في كل ظاهرة جوانب لا تعد ولا تحصى تدل على الله إننا نقول هذا لأن بعض الناس يتورّدون لأن التفكير في الكون ودراسة ظواهره بعمق وترتيب المقدمات على النتائج والوصول إلى الحقائق ونبذ الأوهام والقضاء على الخرافات والتمسك بالقانون الذي أوصلت إليه التجربة كل هذه المعاني مما لا يتفق مع الفكر الديني ولئن وجد هذا عند ديانات خاطئة ومذاهب باطلة فلا يصح هذا في الدين الحق ولن يوجد أبداً لأن الحق لا يتعارض مع الحق فإذا كان الدين حقاً فلابد أن يكون كل أصل فيه وكل فرع من فروعه منسجماً تماماً مع الحقيقة التي قام عليها البرهان؛ وإنما نصا واحداً من نصوص الدين يثبت تناقضه مع الحقيقة القاطعة كاف لأن يزعزع الثقة في الدين كله ولما كانت ظاهرة الحياة من الظواهر التي كثُرَ الأخذ والرد حول بعض جوانبها كان لا بد من أن نذكر بعض قواعد التي تتحدث عن بعض حقائق الإسلام حتى لا نقع في التباس مع ملاحظة أن هذه الجوانب ليس لها علاقة مباشرة في موضوع دلالة ظاهرة الحياة على الله فنقول:

1- إن الإسلام فرض على الناس الفكر والبحث وآيات القرآن في هذا المعنى كثيرة: "أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ" الأعراف : 185 "قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" يونس : 101 "أَوْلَمْ يَتَكَبَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجْلٌ مُسَمٌّ" الروم : 8

2- إن الإسلام فرض على الناس العلم، والآثار الواردة في الحديث على العلم كثيرة وكذلك الآيات التي تبين أن العالمين بالكون أعرف بالله: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافُ الْسِنَّتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ" الروم : 22 "إِلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا الْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُدٌ بِيَضْنِ وَحُمُرٌ مُخْتَلِفُ الْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفُ الْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ" فاطر : 27-28

3- ومن البديهي بعد هذا أن يقال إن ما وصل إليه الفكر والعلم من حق يفترض على المسلم أن يقول به ولا يقول بخلافه وقد يحدث أن يوجد بعض المسلمين الجاهلين وحتى من ينتسبون إلى العلم يعارضون بعض الحقائق العلمية ولكن في هذه الحالة يبقى رأيهم شخصياً وهم فيه خاطئون ويؤاخذهم على ذلك عامة المسلمين وعلماؤهم ولقد قال الإمام الغزالى في كتابه تهافت الفلاسفة حاملاً على علماء الدين المنكرين للحقائق العلمية كمعرفة وقت الكسوف والخسوف وغيرها: ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويتحقق من أدلالها ثم يقال له إن هذا على خلاف الشريعة لم يسترب فيه وإنما يسترب في الشرع. وضرر الشرع من لا ينصره بطريقة أكثر من ضرره من يطعن فيه وهو كما قيل: عدو عاقل خير من صديق جاهل

إنه لمن الوهم أن يظن ظان أن يأمرنا الله عز وجل بالبحث والعلم والنظر والمعرفة ثم يحرم علينا أن نأخذ بنتائج هذا العلم والمعرفة بل العكس هو الصحيح فالأمر بالفكر أمر بالأخذ بنتائج الفكر بالضرورة.

4- ولكن إذا كان المسلم علمي التفكير والاتجاه وهدفه أن يصل إلى الحقيقة العلمية فليس معنى هذا أن يقبل الظن أو الفرضية أو النظرية على أنها حقيقة علمية إن المسلم ينبغي أن يقف أبداً على أرض من صخر في عالم الفكر فالله الذي حرّم علينا أن لا نذعن إلا للحقيقة لم يرض لنا أن نقبل شيئاً دون برهان أو نعتبر الفرضية والنظرية حقيقة فنأخذ بها على أنها مسلمة "ولَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا" الإسراء : 36 "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَى الظَّنِّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" النجم : 28 "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" البقرة : 111

"أَتَوْنِي بِكِتابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" الأحقاف : 4 "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَى الظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءُهُمْ مِّنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى" النجم : 23

وهذا هو الفارق الكبير بين العقلية الإسلامية والعقلية الأخرى العقلية الإسلامية عقلية مثبتة تماماً لا تقبل شيئاً دون برهان ولا تضع في صف الحقائق إلا ما قام عليه الدليل القاطع وذلك

على عكس العقلية الأخرى التي تشنط أحياناً فتصف ما ليس علمياً بأنه علمي وتؤمن به وكأنه قطعي رغم ضعف البرهان أو إمكانية انها ياره إن العقل المسلم كما يرفض ألا يكون علمياً كذلك يرفض أن يكون: حسرياً أو ظنياً أو متواهماً ومنذ قيام الإسلام كدين تفتح العقل المسلم على الحياة والعلم والتجربة وبدأ في حل الغاز الكون بعقلية ترید أن تعرف كل شيء وتخضع الكون كله للتجربة وتستخرج قوانينه المودعة فيه فقامت الحضارة الإسلامية أزهى ما تكون الحضارة متدرجة نحو علم أكثر وكشوف أكثر.

ومما لا شك فيه تاريخياً أن لصاح الفكر الإسلامي التجريبي هو الذي ولد العقل الغربي التجريبي الذي قام كثمرة من ثماره الحضارة العلمية والصناعة الغربية وإذا حدث في العالم الغربي أن اصطدمت الحقائق التي محسنتها التجربة بالدين الذي كان سائداً هناك فالذنب ذنب الدين المحرف المبدل الذي لا يصمد أمام الحقيقة ولكن هذا الشيء الذي حدث هناك لم يحدث عندنا قديماً أو حديثاً ولا يمكن أن يحدث لأن الحقيقة لا تصادم الحقيقة بل تدعمها والدين الحق دين الله والكون خلق الله ولا يمكن أن يتعارض ما خلق الله مع ما أخبر الله عنه ولذلك كانت ظاهرة من أغرب ما عرف العالم وهي أن النص القرآني وسع في حال تعرضه لقضية كل حقيقة كشف العلم عنها في هذه القضية وسيسع كل حقيقة يمكن كشفها فيها وسنرى في بحث الإعجاز القرآني كثيراً من الآيات التي تدل على هذا المعنى بشكل واضح وصريح مثبتين أن الحق لا يعارض حقاً ولكن هذا لا يعني أبداً أنه كلما قام إنسان فقال قوله أن نحمل القرآن هذا القول أو نتأول القرآن لصالح هذا القول إن القرآن أمنع من أن يكون تابعاً فقد أنزله الله ليتبع لا ليتبع إن القرآن والحقيقة العلمية لا يتناقضان ولذلك فإذا ما ثبتت الحقيقة العلمية ثبتوها كاملاً فهم النص القرآني الذي له علاقة بهذه الحقيقة على مقتضاهما بل في هذه الحالة يكون النص القرآني أسبق لتقريرها وإن غفل عن معناه الحقيقي الناس فروننا نتيجة لقلة معرفتهم في الكون وقد ذكرنا هذه المقدمات لأن دارس ظاهرة الحياة لا بد أن يطالبنا بتوضيح الرأي الصحيح في نظرية التطور كنظريّة تعلل تنوّعات الأحياء وظهور الإنسان وإليك ما نقوله في هذا الموضوع:

1- إن القول بأن إنساننا الحالي الذي أتى من أب واحد وأم واحدة كان متقدراً من قرد خطأ لا شك فيه ولا ريب نقول هذا بلغة العلم ولغة القرآن ولا يتناقضان أما بلغة القرآن فلان الله يقول: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" آل عمران : 59 "وبدأ

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ السجدة : 7 ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ قَبْضَتِهِ مِنْ جُمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالْطَّيْبُ ". رواه الترمذى (2955) وأبو داود (4693).

وقال عليه الصلاة والسلام: "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحُ عَطْسًا ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ . فَحَمَدَ اللَّهُ بِإِذْنِهِ ، قَالَ لِهِ رَبِّهِ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا آدَمَ ! اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةِ – إِلَى مَلَأْ مِنْهُمْ جَلْوَسًا – فَقُلْ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ . قَالُوا : وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ . ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ . قَالَ : إِنَّ هَذِهِ تَحْيَيْنِكَ وَتَحْيِيْنِكَ بْنَيْكَ بَيْنَهُمْ " [الترمذى (3368)]

وَأَمَّا بِلْغَةِ الْعِلْمِ:

1- إن التاريخ كله كل سفر فيه وكل أثر من آثاره وكل رواية يتناقلها الأبناء عن الآباء تذكر أن أبا البشر آدم

2- الفوارق الكبيرة بين الإنسان والقرد أو أي حيوان آخر تثبت أنه لا صلة تواليدية بين الإنسان الحالي وأي حيوان هذه الفوارق التي تبدأ من الناحية الجسمية وتنتهي عند (الأخلاق) وبين ذلك الفكر والعلم والإرادة ... إلخ.

وهذه القضية هي التي جعلت حتى بعض أنصار داروين كوالدنس يقول إن الارتفاع بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان ولا بد من القول بخلقه رأسا وقال فرخو: إنه يتبيّن لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد أو غيره من البهائم ولا يحسن أن تتقوه بذلك

3- إن اكتشاف الكروموسومات الصبغيات وهي العامل في انتقال الصفات الوراثية جعلت العلماء يترضون بادعاء أن الإنسان منحدر من قرد إذ الكروموسومات في الشمبانزي 48 وفي الإنسان 46 وذلك أن هذه العرى الملونة لها عدد ثابت في كل نوع من إنسان أو حيوان حيث بها يختلف النوع ويتميز الجنس وإذا كان العلم والقرآن يقولان بما أسلفنا فلا كلام لغيرهما بل ولو شاك العلم وقال القرآن لما كان عاقل إلا مع القرآن وذلك لأن الله الذي خلق الإنسان

أعلم به كيف خلق قال تعالى: "مَا أَشْهَدُتُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ" الكهف :

51

أما فيما يتعلق بأنواع الحياة الأخرى فالذي يبدو أن العلماء الذين أيدوا داروين ليسوا أكثر من العلماء الذين عارضوه وب مجرد أن تكون القضية فيها أخذ ورد بين العلماء تبقى في حدود النظريات ولا ترقى إلى المستوى العلمي المتين وإليك بعض أقوال العلماء الاختصاصيين في هذا الموضوع والذي قبله يقول ولتر أدوار لامبرتس أخصائي علم الوراثة وقد اتضح لي كثير من الحقائق فعلم الوراثة مثلا لم يقدم لنا دليلا على صحة الفرضيات الأساسية اللذين أقام عليهما تشارلز داروين نظريته في نشأة الأنواع وهما:

1- أن العضويات الصغيرة في كل جيل من الأجيال تتزعز دائمًا إلى أن تختلف اختلافات

طفيفة عن آبائها في جميع الاتجاهات الممكنة

2- أن التغيرات المفيدة تورث في الأجيال الأخرى وتتراكم نتائجها حتى ينتج عنها تغيرات جسمية و الواقع أن أقصى ما يمكن أن يتم من التغيرات في النباتات والحيوانات يمكن أن يتحقق سريعا عن طريق الانتقاء والتربية ويؤدي التلقيح الذاتي في النباتات أو زواج الأقارب في الحيوانات إلى إنتاج أفراد ضعيفة إلى حد كبير ولا تغير في جميع الاتجاهات كما ذكر داروين إلا عندما تصيبها بعض الطفرات وهي قليلة الحدوث.

وتعتبر هذه الطفرات على قلتها الأساس المادي الذي يبني عليه علماء التطور تفسيرهم لظاهرة التطور ولكن هل يمكن أن تكون الطفرات حقيقة وسيلة التطور إن الدراسة الطويلة المتصلة بهذه الطفرات في كثير من الكائنات ؟ وبخاصة في ذباب الفاكهة المسماة دروسو فيلاميلانوجستر تدل على أن الغالبية العظمى من الطفرات تكون من النوع المميت أما الأنواع غير المميتة منها فإن التغيرات المصاحبة لها تكون من النوع الذي يؤدي إلى التشوه أو على الأقل من النوع المتعادل الذي يحدث تأثيرات فسيولوجية تضعف من قوة الفرد فمن الصعب إذن أن يؤدي تجمع هذه الطفرات الوراثية إلى التغيرات اللازمة لنشأة أنواع جديدة تعتبر أكثر تقدما ورقيا من أسلافها وقد تؤدي الطفرة في بعض الحالات النادرة إلى تحسين صفة من الصفات كما يحدث في جناح الدروسوفيلا ولكن اجتماع هذه الصفة مع بعض الصفات الأخرى

التي تطأ على الجناح يؤدي إلى تكون حشرات أقصر عمرًا وأقل قدرة على الحياة ولنسلم جدلاً بحدوث طفرات نادرة تصبّها تحسينات تبلغ 1 بالمائة فكم تحتاج مثل هذه الطفرات من الأجيال لكي تترافق ويفتهر أثرها وينتج عنها نوع جديد. لقد وضح باتو في كتابه التحاليل الرياضي لنظرية التطور أن تعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة في سلالة من السلالات لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة وحتى لو سلمنا بقدم الأحقاب الجيولوجية كما يقدرها الجيولوجيون فمن الصعب أن نتصور كيف أن حيواناً حديثاً نسبياً مثل الحصان قد نشأ من سلفه الذي كان عدد الأصابع في قدمه خمساً في الفترة من العصر الحجري حتى الآن ويقول ليكونت دي نوي: إن الكلمة حلقة الكلمة ذات أهمية كبيرة في تاريخ الكائنات الحية إذ لا يمكن إثبات أن شكل ما من الكائنات يشكل حلقة حقيقة وقد يكون ذلك ممكناً في بعض الحالات ولكنه ليس مؤكداً

وعلى أي حال يمكننا أن نقول: إنه ليس هناك شكل يعيش حالياً وهو سلف مباشر لشكل آخر فالإنسان لم ينحدر عن القرد أما بين المستحاثات فإن كثيرة من الأشكال التي تدعى أشكالاً وسطية ليست سوى محاولات غير ناجحة للتكييف وقد تكون معاصرة أو سابقة أو تالية للأشكال الانتقالية الحقيقة (١ . ٥)

3- وإن الحلقة التي يقدمها بعضهم كأهم حلقة متكاملة من حلقات التطور هي حلقة روابط التسلسل عند الحصان إذ قدموا ستة أشكال وسطية تبتدئ من الهيرا كوثيريوم والايوهيبوس من العصر الإيوسيني منذ حوالي 50 مليون سنة وتنتهي بالحصان الحالي ولكن هذه الأشكال الوسطية تبدو وكأنها ظهرت فجأة وحتى الآن لم يتمكن من معرفة الجسر الذي يربط بين هذه الأشكال الوسطية بسبب نقص المستحاثات ولكن حتى في حالة ثبوت هذا؛ فليس في ذلك دليل على ما ذهب إليه دوارين إذ أن الحصان بقي حساناً والمراد أن يؤتى بالدليل على أن الحصان أصبح جمالاً

ويقول ليكونت دي نوي كذلك: منذ البداية تلاحظ وجود روابط وفروق أساسية بين الحيوان والنبات فالسائل المغذي في الحيوانات هو الدم ودم الحيوانات العالية يحتوي على مادة أساسية هي عبارة عن صباغ أحمر يدعى بالهيموغلوبين كبيرة جداً ومعقدة للغاية ويختلف تركيبها بين

حيوان وآخر والوزن الذري الأدنى 69000 يقارب الهيموغلوبين في تركيبه الكيميائي ذلك الصباغ الموجود في النباتات والأشبنات والذي يدعى باليخضور يحتوي على جوهر من المغنزيوم ومما يزيد في تعقيد المسألة أن الدم في بعض مفصليات الأرجل والركوبات والحيوانات الدنيا يحتوي على صباغ مختلف وزنه الذري تبعاً لأنواع بين 400000 ، 6700000 ويحتوي على جوهر من النحاس بدلاً من الحديد والمغنزيوم بعض أنواع الحلزون مثلاً فكيف تم الانتقال الكيميائي من صباغ لآخر يجب أن نعترف بصرامة أنه من المستحيل بيان ذلك إن بعض الأشبنات الزرقاء تحتوي على العنكوسbanin بينما الأشبنات الخضراء تحتوي على الكلورو فيل ولا أحد يستطيع أن يثبت أن الأشبنات الخضراء اشتقت من الأشبنات الزرقاء لأن الفرق بين الاثنين كبير جداً وليس هناك شيء يستطيع أن يعلل هذا الانتقال لأن البيئة التي يوجد فيها النوعان مشتركة فلا يعلل الانتقال بتغير بيئه لندع جانباً إغراء القول: بأن أشياء كثيرة قد تحدث خلال 100 مليون سنة فإذا لم يحدث شيء في سنة واحدة فليس هناك ما يدعو بضرب ما يحصل بمليون أو 100 مليون مرة لأن نقول بأن شيئاً سيحدث في نهاية الزمن فيجب أن تتوفر دائماً نقطة أو عدة نقاط بدءً مما كانت صغيرة لتصبح المسألة ممكناً. لقد نقلنا هذه الأقوال ؟ لنبرهن على أن نظرية التطور ليست إلا من قبل الفرضيات التي لم يقم عليها برهان ولو لا أن الصهيونية العالمية والشيوعية العالمية كل واحدة منها تتبايناً لهوى في النفس كاملاً ؛ لنُقْضَّـ من زمن نتيجة للحملات العلمية المركزية التي قام بها آلاف من العلماء عليها.

إن بروتوكولات حكماء صهيون تذكر أنها هي التي مهدت لنجاح داروين وقصدها من ذلك تحطيم الأديان في نفوس البشر غير اليهود والشيوعية تتمسك بها كتمسك لا بد منه ولو باطلاً لإثبات المادية الجدلية أما موقفنا نحن المسلمين من هذه القضية فهو الذي ذكرنا سابقاً كموقفنا تماماً من كل شيء ما قام عليه البرهان قبلناه وإنما توافقنا فيه إذا كان النص القرآني محتملاً أما إذا جزم النص القرآني وشك العلم فنحن مع النص جزماً لقد أمرنا الله أن نبحث عن نشأة الحياة:

"**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**" العنكبوت : 20 وقال تعالى : "أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بُيْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه" العنكبوت : 19 ولقد أمرنا أن ننظر كيف وجدت الأحياء: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْبَلِيلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" الغاشية : 17 والله وحده له العلم الشامل للمحيط قال أي

فرعون: "فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ" طه : 51 قال: أي موسى: "عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ
رَبِّي وَلَا يَنْسَى" طه : 52

فما أخبرنا عنه منه ذلك لا يكون غيره حقا ولا يكشف العلم عن سواه وقد ذكرنا ما قال في هذه القضية والآن نبدأ في دراسة ظاهرة الحياة لرؤيه قدرة الله فيها وهو المقوود من هذه الدراسة فنقول: إن ظاهرة الحياة تدل على الله من أربعة جوانب رئيسية:

- 1 نشأتها
- 2 تنويعها
- 3 الإنسان
- 4 الأخلاق

كل جانب من جوانب هذه المعاني يدل على الله دلالة كاملة ورغم كل المحاولات التي بذلت لإثبات أن هذه المعاني يمكن أن تكون دون أن يكون الله خالقها فإن الحقيقة بقيت سافرة دائماً أن الله هو الخالق.

نشأة الحياة وتتنوعها

إن الملحدين يقولون: إن الحياة بدأت خلية بسيطة أو مجموعة خلايا ثم بدأ التكاثر يعمل عمله والتطور يعمل عمله حتى وصلت الحياة إلى ما وصلت إليه الآن ولكن هل لهم على هذا من برهان إن أكبر برهان لو كان هو أن يصنعوا الحياة خاصة والعناصر التي تتركب منها الأحياء معروفة ونسبها معروفة وأجهزتها معروفة وكل شيء فيها معروف وكل شرط تحتاجه الحياة يمكن أن يتتوفر في المصنع فمهما كانت الظروف الأولى التي ولدت فيها الحياة فبالإمكان أن نقدرها ونوجد ظروفًا مثلها ولكن حتى لو حصل هذا أقول الذي صنعها: إنها وجدت من غير شيء أم يقول: إنها وجدت بعلم الإنسان وإرادة الإنسان وقدرة الإنسان؟

إن الله عز وجل يتحدى الذين يؤمنون بغيره إليها مهما كان نوع هذا الإله: طبيعة كان أو إنساناً أو صنماً أن يخلق هذا الإله المزعوم ذبابة قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوْا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبُوهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَقْذِرُوْهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبُ" الحج : 73 "مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ" الحج : 74 وقد سار

الإنسان في الطريق ليجرب حظه في هذا التحدي لا ليصنع ذبابا بل ليصنع ما هو أقل من الذباب فماذا كانت النتيجة لقد كانت كما يلي:

حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيماويا وذلك في زعمها كدليل ثبت به مذهبها الإلحادي وكان أن كلفت بهذا الموضوع أوبارين رئيس المعهد الكيميائي في الاتحاد السوفيتي وطلبت منه أن يتفرغ للبحث في أمر واحد وهو مدى إمكانية إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي وبعد عمل متواصل قارب عشرين عاما أعلن حوالي سنة 1959 عن انتهائه من دراسة هذا البحث وأعلن عن النتيجة التي توصل إليها في تقرير رسمي أذاعته جميع وكالات الأنباء في العالم إذ ذاك وهي أن العلم الكيميائي عاجز عن إيجاد الحياة في المختبر والعلم لا شأن له إلا بالمادة المحسوسة وبدلا من أن يعترف أن الله هو خالق هذا الكون أجاب على سؤال كانت صيغته: هل التفاعل الكيميائي في المادة قادر على بث الحياة كما انبثت الحياة الأولى منذ ملايين السنين وعلى الصورة التي ادعاهما أرنست هيكل إن هذا ممكن ولكن في كواكب أخرى غير كوكبنا هذا وهذا تهرب واضح من السؤال حتى لا يخرج وإن لم نستطع صناعة الحياة وكل شيء متوفرا

والواقع أن عامة الذين لا يؤمنون بالله يتهربون من هذا الموضوع بمثل هذه الادعاءات إن الحياة قد جاءت من بعض الكواكب في شكل جرثومة اسللت دون أن يصيبيها تلف وبعد أن بقيت زمانا غير محدود في الفضاء استقرت على الأرض ومن ثم تسللت الحياة عن تلك الجرثومة أو يقولون: إنها وصلتنا عن طريق نيزك أصاب أرضنا مثل هذا الكلام عدا عن كونه لا يفسر لنا علميا تبعا لقوانين الوراثة ما نجده من أحياط فهو غير معقول كذلك إذ كيف استطاعت هذه الجرثومة أن تبقى حية في درجة الصفر المطلق في الفضاء وإذا استطاعت هذه الجرثومة البقاء رغم ذلك فكيف نجت من الإشعاع الكثيف ذي الموجة القصيرة الذي يقتل أمثالها وإذا بقيت حية رغم ذلك فكيف وجدت لنفسها المكان الملائم وكيف وجد هذا الاتفاق المدهش في الظروف حتى توالت فبدأت الحياة وكم من السنين استغرقت هذه الرحلة حتى وصلت وفي الحالة الثانية حالة النيزك كيف سلمت رغم الاشتغال الذي يحدث عندما يصطدم نيزك في جو الهواء وإذا سلمنا بإمكان هذا كله يبقى سؤالنا دون جواب كيف بدأت الحياة على ذلك الكوكب الأول

إن الخلية الواحدة على بساطتها ينبغي أن تقوم بجميع وظائف الحياة من تغذية وتنفس وطرح حرارة معينة ونمو وتكاثر وانقسام وحركة وتأثير وإفراز وتلاؤم مع البيئة ولذلك فإن الخلية من التعقيد بحيث لا تقل أبداً عن أي كائن حي آخر ومن نوادر الاعترافات العلمية قول بخنز الذي يعتبر من أشد المؤيدين لمذهب التشوه ومن أكثر الماديين غلواً ومن الذي اتهموا داروين بأنه كان مصانعاً لرجال الدين:

إن بعض أمراض التبغ تتولد من حمات مركبة من هيولينات نووية. تقاوم مبيدات الجراثيم وتنصف بخواص تمكناها من التكاثر والتمثيل، ولقد تأكّدت في السنوات الأخيرة حقيقة جديدة، وهي أن هذه الحمات ليست إلا حموضاً نووية خالصة تحيط بها مادة هيوليونية وأن الحمض النووي المكون لها هو أحد نوعين إما دي إن إيه أو آر إن إيه ولقد أمكن الآن معرفة بنية كل من هذين الحمضين معرفة تامة، رغم تركيبها المعقد جداً وذلك بفضل استخدام الأشعة فوق البنفسجية والمجهر الإلكتروني ووسائل كيماوية كثيرة أخرى وتبين أن هذا الحمض يتَّألف من ثلاثة عناصر رئيسية تؤلُّف وحدة صغيرة تسلسل وتتكرر بشكل شريط أو سلسلة طويلة، وتقابل ذلك السلسلة سلسلة أخرى مثُلها، تتصطف أمامها وتلتقي إدراهما حول الأخرى بشكل حلزوني، ويربط بين السلاسلتين بمسافات متساوية الأبعاد، روابط هيدروجينية تجعل شكلها النهائي كشكل سلم لوبي أو درج مئذنة. وأوضح العالمان واطسون وكرييك أن عدد دورات الشريطين الحلزوين في الحمض يزيد عن ألف دورة، وأن طول الشريطين أو طول الحمض لا يتجاوز

30 انغستروا. ولقد قدر أحد العلماء أننا لو بسطنا الشريطين الحزونين ووصلنا نهاية أحدهما بنهاية الآخر ، لكان طولهما خارج النواة مترا ونصف المتر ولكي ندرك تعقيد هذا الحمض نذكر الوزن الذري لأحد نوعيه أرن إي وهو 1 فاصلة 5 ضرب 10 أس 6 ومع ذلك اكتشف الحمض واستطاع العالم اوشوا من اصطناعه وأخذ على ذلك جائزة نوبل لقد صيغ هذا الحمض وببلور فكان من ذلك حمض لا قدرة له على التكاثر هو مثل الحمض دي إن إي الذي وجد التبغ والحمات، كانت صيغة الحمضين واحدة ولكن الفرق بينهما عظيم جدا وهو الفرق بين الحياة والموت هو الفرق بين الصنم العديم الروح والجسد الحي الآهل بالروح وبعد هذه هي النتيجة: إن المادة لا تعقل حتى القوانين التي تطبق عليها فالذرات إنما تطيع قواعد الألفة الكيماوية وقانون الجاذبية وتأثير درجة الحرارة أما الحياة فهي ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً سوى آثاره قال تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيت من العلم إلا قليلا".

يقول ليتز: (إن كل خلية من البروتين تتتألف من سلسلة فيها بعض مئات من الحلقات وإن كل حلقة فيها هي تركيبة من ذرات قوامها حمض من الأحماض النشادية وهي أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين ويجوز أن يقع كل منها موقعه على اختلاف في النسبة والترتيب، ولكننا لا نراها في بعض الأنسجة إلا على ترتيب واحد ونسبة واحدة بغير شذوذ ولا اختلاف فهل نستطيع أن نتخيل مبلغ الدقة في هذه الإصابة بين احتمالات الخطأ التي لا تحصيها أرقامنا المألفة يكفي لتقريب هذه الدقة من الخيال أن نذكر أن الحروف الأبجدية في لغات البشر كافة لا تتجاوز الثلاثين ويتألف من تركيبتها المتغيرة كل ما تلفظ به الأمم من الكلمات والعبارات فإذا كانت خلية البروتين في حجمها الخفي قابلة لأضعاف هذا التكرار ثم لا تشاهد فيها إلا كلمة واحدة في ترتيب واحد لا يتغير فقد عرفنا على التقرير معنى تلك الإصابة في التوفيق والتركيب.

لتقرير هذا الخيال نقول: إن الضوء يصل من طرف المجرة إلى الطرف الآخر في ثلاثة ألف سنة؛ فإذا أردنا أن نشبه إصابة الخلية في تركيبها بمثل مفهوم، فهذه الإصابة تضارع إصابة الرصاصة التي تنطلق من الأرض فتصيب هدفا في نهر المجرة بحجم عين الثور ولا تخطئه مرة من المرات، وهذا على فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط وليس بضع مئات

ولكن البروتين ليس هو كل شيء، بل هو جزء من خلية والخلية جزء من عضو والعضو جزء من جهاز، والجهاز جزء من جسد والجسد كله من بروتيناته إلى خلاياه إلى أعضائه، إلى أجهزته، متداخل تدخلاً هائلاً، ومنسجم انسجاماً تاماً ومتفاعل مع بعضه تفاعلاً تاماً.

والجسم الحي الذي تتكرر فيه هذه المعجزات كل لحظة من لحظاته، لا تزال فيه بقية العجب لعلها أعجب من كل ما تخيلناه، وهي أن هذه الذرات الخفية تجتمع وتتفرق وتلتئم وتتفصل على نحو يضمن لها التجدد، أو يضمن الدوام للحياة. فيتتألف كل حي من جنسين، وترجع من كل منها خلية واحدة يتكون منها حي جديد وتنقسم هاتان الخليتان تارة أزواجاً وتارة أخرى فرادى، على الوضع المطلوب في المرحلة المطلوبة، ويتفرق عددها في كل نوع من الأنواع الحية بغير زيادة ولا نقصان، وينطبع كل حي على عادات وغرائز تسوقه إلى التناслед في موعد المقدر، فيبني العش قبل أن ينسل إن كان من الطيور. ويفارق الماء الملح إلى مداخل الأنهر أو الخلجان قبل أن ينسل إن كان من سمك البحر. ويمتلئ إلى شريكه في التوليد قبل موعد التوليد على اختلاف الأنواع والأجناس)

إن التعقيد الهائل في ظاهرة الحياة، والانسجام الهائل فيها، ووضع كل شيء في محله إنما يدل دلالة واضحة على علم وإرادة وقدرة وراءها؛ بشكل غريب عند الأمي، وعلمي مقنع عند العليم.

أن تنشئ المادة لنفسها أسماعاً وأبصاراً وأفئدة. إن هذا ليس من حالات المادة التي يقبلها العقل بغير تفسير، وكل ما قيل في نفي العجب من تركيب الجسم الحي – لأننا نرى الآلات المادية تعمل بنظام، وتوزع العمل فيها لمقصد معلوم، وهدف معلوم – هو العجب . فالعجب في هذا التشابه بين الآلات والأجسام الحية ، لأن الآلات لا تنشأ بغير صانع، ولا يغنينا تعليل أعمالها بقوانين الحرارة والحركة عن تجاوز القوانين إلى إرادة المهندس المسخر لهذه القوانين وقد كان الناس ينظرون بالعين المجردة إلى أعضاء الجسم الحي ؛ فيعجبون وسعهم العجب لدقتها، وتساند أجزائها، وتعاون وظائفها ، وسريان عوامل النمو فيها بمقاديره الضرورية، على حسب السن والنوع والفصيلة. سواء في جسم الإنسان أو جسم الحيوان، أو جسم الحشرة، أو جسم النبات؛ فأحرى بهم أن يعجبوا أضعاف ذلك العجب بعد أن عرفوا بالمجاهر والتحليلات مما تتتألف تلك الأعضاء، وعلى أي نحو تساند تلك الوظائف، وتبيّن لهم أن هذه الأعضاء البارزة للعيان مجموعة من ذرات لا ترى الألوف منها بالعين المجردة وأن كل ذرة منها تقع في

موقعها من الجسم وتعاون بقية الذرات فيه، كأنها على علم بها وبما تطلبه، ولا تضل واحدة منها عن طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها، إلا تكفل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها. وفي الأرض بلايين البلايين من الأحياء؛ وفي كل واحد منها من العجب مالا ينفسي و هناك مثلاً يبين لك كثرتها، يقول لسترون زمرمان إخصائي التربة: (أما التربة المنتجة الخصبية فهي تربة حية، يعيش بها عدد لا يحصى من الكائنات الدقيقة، من حيوان ونبات، وقد تصل نسبة الكائنات الحية التي تعيش بهذه التربة الخصبية إلى ما يقرب من 20 بالمائة من المادة العضوية التي بها، وقد يصل عدد هذه الكائنات الحية إلى بضعة بلايين في الجرام الواحد من التربة)

هذه البلايين الهائلة من الأحياء تنقسم إلى آلاف من الأجناس والأنواع، كل جنس وكل نوع له خصائصه، ومزاياه، وشكله، وصورته، وطرق تغذيته، وطرق حياته، وكل فرد من أفراد كل جنس فيه خصائص الجنس وكل تعقيدات الحياة قال تعالى: "وَمَا مِنْ دَبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْتَلُكُمْ" الأنعام : 38

ولكل رزقه، وغذاؤه ، وغريزته التي يبحث فيها عن الرزق، وأجهزته التي يهضم بها رزقه قال تعالى: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَبَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ" النور : 45 "وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَبَّةٍ" لقمان : 10

إن المنطق الواحد المعقول، أن الله الحي هو وحده خالق الحياة قال تعالى: "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ" أمواات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون النحل : 21-20 ولا يستويان في منطق العقل قال تعالى: "أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ" النحل : 17 ولا يستويان كذلك عقليا: إنسان نسب الحياة إلى المصادفة ، وآخر ينسبها إلى الله قال تعالى: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسَانَ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بِل் هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" الأعراف : 179

وتأمل بعد هذا في هذه القصة، قصة أصغر مخلوق وأبسط مخلوق؛ لترى أن وراء سر الحياة الله، ابتداء وانتهاء، نشأة وأنواعا. هذا المخلوق هو الأمبيا: (عندما نذهب إلى المعمل، ونفحص

قطرة من ماء المستقوع تحت المجهر لكي نشاهد سكانها، فإننا نرى إحدى عجائب هذا الكون: فتل� الأمبيا تتحرك في بطء وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها، فإذا به دخلها، وإذا به يتم هضمها وتمثيله داخل جسمها الرقيق. بل إننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الأمبيا قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر.

فإذا ما لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول، فإننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيواناً جديداً كاملاً. (وقالوا: إن انقسام الخلية لا يتم إلا إذا لامستها خلية أخرى؛ إذن هنا عملية زواج بين ذكر وأنثى) تلك خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التي تحتاج الكائنات الكبيرة الأخرى في أدائها إلىآلاف الخلايا أو ملايينها. ولا شك أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذي بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج إلى أكثر من المصادفة، مع ملاحظة أنه موجود في كل مكان في العالم، وهو الآن على ما كان عليه من أول ما وجد وإذا دققت في هذا الحيوان البسيط، تجد داخله الجبلة البروتوبلازم ذات التركيب المائي، والحيوية الفياضة، مركز الحركة والحياة في جميع الكائنات الحية، يتحرك حركة عجيبة.

فالأمبيا لا تسبح في الماء ولا تطفو على سطح قطرة الماء أو تتدفع في جوفها ولكنها تتحرك كما لو كانت تتسلك أو تسهل. أما جسم الأمبيا فهو كتلة عارية من البروتوبلازم، وهو يختلف عن الخلية النباتية، في أنه لا يحيط به من الخارج جدار صلب، بل مجرد غشاء رقيق يحدد جسمه، وكلما تحركت الجبلة البروتوبلازم في اتجاه من الاتجاهات، أطاعه ذلك الغشاء، وتحرك معه في نفس الاتجاه وبذلك يتغير شكل الحيوان ، وت تكون له زوائد لا تثبت أن يتغير شكلها بعد قليل وبهذه الطريقة يتحرك الحيوان، مستعيناً بهذه الزوائد التي تشبه الأقدام، والتي تسمى بسبب ذلك الأقدام الكاذبة؛ ومن الممكن استخدام القوة المكرونة العظمى في المجهر لمشاهدة الحشوة السيتوبلازم عند اندفاعه في الأقدام الكاذبة، ولكي تشاهد أن جسم الحيوان يتكون من طبقتين من الجبلة البروتوبلازم تختلفان في كثافتيهما، أما إحداهما فهي كتلة شفافة مائية دائمة الحركة، وأما الأخرى فهي كتلة هلامية نصف صلبة تحيط بالطبقة السابقة إحاطة تامة.

كيف تتحرك الأمبيا؟ ماهي الأسباب التي تقوم بعمليات التغذية؟ أجوبة كثيرة تبقى غير كافية، مؤثرات كثيرة تؤثر على حركة الجبلة داخل الخلايا، ولكنها مجرد مؤثرات سطحية بسيطة، لا تستطيع أن تبين لنا لماذا تبقى حركة الجبلة دائمة لا تقطع، حتى عندما يزول أثر هذه

المؤثرات. ومعنى ذلك أن جانباً على الأقل من أسباب هذه الظاهرة يرجع إلى الجبلة ذاته. فمن الحال إذن أن نفس ظواهر الحياة على أنها مجرد استجابات لبعض المؤثرات الخارجية وبهذه المناسبة نحن نعلم أنه عندما تتشطر خلية حية إلى نصفين، بطريقة الترشيح الدقيق، بحيث تكون النواة في أحد القسمين دون الآخر، فإن القسم الحالي من النواة يموت بعد قليل.

وقد أخفقت جميع الجهود التي بذلت للاحتفاظ به حياً، وعلى ذلك فإن النواة هي التي تنظم العمليات الحيوية في الخلية وتسيطر عليها، فإذا زال هذا الإشراف توقفت الحياة وهكذا في الخلية التي تشكل أبسط حيوان، ترى قدرة الله كما نراها في أعقد الأحياء قال تعالى: "أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ" الأعراف : 191 إن الكون مخلوق لا خالق ، ومن أعطى الكون أو الطبيعة صفة الخلق، فقد أشرك بالله جهلاً وسفاهة فنشأة الحياة لا تعلل إلا بالله، ووجود الأنواع والأجناس لا يعلل إلا بالله. وما في الأحياء من عجب لا يعلل إلا بالله، وكل جزئية من هذا كله آية على الله.

الإنسان والأخلاق

الإنسان أكمل ما خلق الله، لذلك كان من أبدع ما يعرف الله به ولذلك فيقدر ما يعرف الإنسان نفسه يعرف ربه، وبقدر ما يجهل نفسه يجهل ربه، لذلك كانت الحكمة التي تقول: (من عرف نفسه عرف ربه) من أصدق الكلم التي صاغها عقل الإنسان وأهم شيء في الإنسان، صفاته الأساسية التي لا يمكن تعليلها إلا بأنها قبس من أمر الله ثم أخلاق الإنسان، والصفات الأساسية للإنسان: العلم، والإرادة، والقدرة.

إن المادة لا تعرف نفسها ولا تعقل قوانينها، والمادة لا يمكن أن يكون لها خيار وقدرتها قدرة محدودة بإطار، أما الإنسان فيعلم ويريد تبعاً لهذا العلم، وقدرته تتغذى على ضوء هذه الإرادة. إن استعداد الإنسان للعلم ظاهرة من أعظم ظواهر الوجود، إذ الإنسان وحده من هذه المخلوقات التي نراها، عنده استعداد ليعرف كل شيء، ويحلل ويركب ويقيس ويعدل، ويقبل ويرفض، ويتصور، ويستطيع أن يفكر حتى يعرف مجهولاً على ضوء معلوم ويرسم للحياة طريقاً أو طرقاً، ويبني حضارة أو يهدمها ويتبع ظاهرة العلم، ظاهرة التعبير حين يعبر الإنسان عن كل هذا: تارة أدباً، وأحياناً كلمة، وأخرى فلسفة، وطوراً منطقاً، وبهدوء أو بشدة، وبعاطفة أو بعقل.

إن علم الإنسان وبيانه يدلان مباشرة على الله: "الرَّحْمَنُ" * عَلَمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَمَ الْبَيَانَ" الرحمن : 1-4 "اَفَرَا وَرَبُّكَ الْاَكْرَمُ" * الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَنِ" * عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" العلق : 3-5 والمادة لا تريده، بل تخضع لإرادة وهذه الإرادة لا تتغير ولا تتبدل سنتها والحيوان إن كانت له إرادة غريزية ضمن أطر معينة. إطار الحياة والموت ، إطار الرزق و الفساد، أما ما عدا هذا فهو في بهيمة غامضة، لا يعرف معنى الإرادة حتى يريد ولكن الإنسان عنده طاقة إرادة، يرجح بها بين المتقابلين، ويختار من بين الصدرين كلامه بإرادة، وحركته بإرادة، إن الإنسان وحده يملك حرية الاختيار بشكل لا مثيل له بين أجزاء العالم المحسوس. يختار الكذب فيكذب، ويختار الصدق فيصدق، ويختار الخراب فيخرب، والإعمار فيعمـر؛ طاقة هائلة من الإرادة، يرافـقها طاقة هائلة من القدرة.

إنه بقدر ما أعطـي الإنسان من طاقة إرادة، أعـطي قدرة عظـيمة، ومظـهر هذه القدرة؛ إمكانـية التـسخـير والاستـفادـة من كل شيءـ. إنه يـسـتطـيع أن يـسـتـبـتـ الأرضـ إذا لم تـتـبـتـ وأن يـحـصـدـ إذا زـرـعـ، وأن يـرـكـبـ مـتنـ الـرـيـحـ وـالـمـاءـ، وأن يـأـكـلـ لـحـمـ الطـيـرـ وـالـسـمـكـ وـأنـ يـسـتـخـرـجـ منـ كـلـ شـيـءـ ماـ يـنـفـعـهـ، وأنـ يـتـرـكـ منـ كـلـ شـيـءـ ماـ يـضـرـهـ إنـ عـلـمـ الإـنـسـانـ. وـإـرـادـةـ الإـنـسـانـ، تـدـلـ بشـكـلـ وـاـضـحـ عـلـىـ تمـيـزـ الإـنـسـانـ عـلـىـ الـمـادـةـ. وـأـنـ الـمـادـةـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تعـطـيـهـ عـلـمـاـ وـلـاـ إـدـراـكاـ وـلـاـ قـدـرـةـ وـلـاـ إـرـادـةـ، بلـ اللهـ وـحـدـهـ هوـ الـذـيـ يـمـلـكـ أـنـ يـعـطـيـ الإـنـسـانـ هـذـاـ قـالـ تـعـالـىـ: "وَعَلَمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" البقرة : 31 "هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فـي الـأـرـضـ جـمـيـعـاـ" البقرة : 29 "هُوَ انْشَأَكُمْ مـنـ الـأـرـضـ وـاسـتـعـمـرـكُمـ فـيـهـاـ" هـودـ : 61 "وـجـعـلـ لـكـمـ السـمـعـ وـالـأـبـصـارـ وـالـأـفـقـةـ لـعـكـمـ تـشـكـرـونـ" النـحلـ : 78 "أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ" وـلـسـانـاـ وـشـفـتـيـنـ * وـهـدـيـنـاـ النـجـدـيـنـ" البلـدـ : 10-8

وـأـمـاـ الـأـخـلـاقـ؛ـ فإـنـهاـ تـلـكـ المشـاعـرـ الـتـيـ تـنـتـجـ سـلـوكـاـ،ـ وـمـحـلـ هـذـهـ المشـاعـرـ عـالـمـ النـفـسـ عـنـ الـإـنـسـانـ،ـ إـنـهـ عـالـمـ كـامـلـ لـاـ نـعـرـفـ عـنـهـ إـلاـ آـثـارـهـ الـتـيـ نـحـسـهـاـ فـيـ أـعـماـقـنـاـ،ـ وـتـظـهـرـ تـارـةـ عـلـىـ صـفـحـاتـ وـجـوهـنـاـ.ـ أـوـ عـلـىـ أـلـسـنـتـاـ أـوـ أـيـدـيـنـاـ مشـاعـرـ الـرـحـمـةـ وـالـقـسـوـةـ،ـ الـعـفـوـ وـالـإـنـتـقـامـ الـذـلـةـ وـالـعـزـةـ الـعـدـلـ وـالـظـلـمـ الـأـمـنـ وـالـخـوـفـ،ـ وـالـحـرـبـ وـالـسـلـمـ،ـ وـالـغـضـبـ وـالـحـلـمـ،ـ وـالـجـبـنـ وـالـشـجـاعـةـ،ـ الـكـبـرـ وـالـتـواـضـعـ،ـ وـالـجـبـروـتـ وـالـلـيـنـ،ـ وـالـهـدـاـيـةـ وـالـضـلـالـ،ـ الـقـبـضـ وـالـبـسـطـ.ـ الـانـخـافـضـ وـالـاـرـتـقـاعـ.ـ التـجـمـعـ وـالـتـفـرـقـةـ،ـ الـحـبـ وـالـبـغـضـ،ـ الـحـقـ وـالـغـلـ وـالـكـراـهـيـةـ وـالـحـسـدـ،ـ الـإـحـسـاسـ بـالـجـمـالـ وـالـإـخـلـاصـ لـلـمـثـلـ

ومشاعر أخرى تفيض بها النفس وكأنها أمواج بحر كبير نساء فنباكي، نسر فنضحك، ونشق ونبغض من عشقناه ونرجو ونؤيأس إنها النفس أغمض ما في الإنسان إن تجمع بروتونات أو إلكترونات لا يكون احساسات أخلاقية قال تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِّ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي" الإسراء : 85 "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا" الشمس : 7 "وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ" الذاريات :

21

ففي النفس آيات كثيرة كلها تشير إلى أن الله هو الذي خلق وجود النفس آية ، وكل صفة من صفاتها الخيرة أو الشريرة آية. وعدا هذا؛ ففي النفس آيات أخرى تدل على أن في هذا الكون عجائب غير مادية، تجعل الإنسان قريبا جدا مما وراء المادة فالتنويم المغناطيسي والطرح الروحي (والتبائي)، وحوادث الرياضة الروحية التي يبصر أصحابها بلا إيهام هذه المعاني كلها تدل على أن هناك شيئاً غير المادة في هذا الوجود، وحوادث قراءة الأفكار وما يحيط بها؛ كلها تشير بعمق إلى أن الإنسان ليس مادة فقط وأنه عندما يموت الإنسان لا يكون قد تعطل جزء من جهازه المادي فقط، بل مع هذا يكون الإنسان قد فقد شيئاً آخرأً هذا الشيء المفقود هو الإنسان نفسه، وعاد التراب إلى التراب.

وأخيراً، إن نشأة الحياة دليل على الله، وتعقيدات الحياة دليل على الله، وتتنوع الأحياء دليل على الله، ومركز الإنسان في هذا الكون بصفاته العليا دليل على الله، وفي النفس البشرية – أخلاقها وعجائبها – دليل على الله، وهذا وحده كاف لتعرف به الله. فكيف إذا اجتمع معه ما ذكرنا سابقاً وما سنذكر لاحقاً؟ وكيف إذا اجتمع مع هذا وهي يتزل ومعجزات تتحدى؟ وكيف إذا اجتمع مع هذا رسل صادقون صالحون أتقياء أذكياء وبررة فهل يبقى بعد كل ذلك لكافر من حجة ولا سبيل؟ إلا حجة الجهل وسبيل الهوى المؤدي إلى البوار ثم إلى النار؛ ألا لعنة الله على الكافرين.

الظاهره الرابعة

ظاهرة الإجابة

هذه الظاهرة لكل واحد منا تجربته الخاصة فيها، فما من واحد منا نحن البشر سواء في ذلك المؤمنون منا وغير المؤمنون، إلا مرت عليه فترة فيها شدة وفيها اضطراب وفيها قلق توجه فيها إلى الله بقلب كله انكسار ورجاء وأمل، وإذا بالكرب يزول، الشدة تنتهي ويجعل الله من بعد عسر يسرا، ويعود الرخاء بعد الضراء. ولكنك تجد قلوبنا بقيت شاكرة متذكرة زاد إيمانها، وأخرى عادت إلى غفلتها متناسية ما ذكرته ساعة المحن.

إن الأمر المسلم به، أنه ما من نفس إلا وتتجأ إلى الله ساعة الخطر وقد كرر القرآن هذا المعنى كثيرا فقال: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمُ السَّاعَةُ أَغْيَرُ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" بل إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَسْوُنَ مَا تُشْرِكُونَ" الأنعام : 40-41
وإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الْضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّ كَأْنَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَهُ كَذَلِكَ زُرِّيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" يونس : 12
وإِذَا مَسَكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا" الإسراء : 67

"هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءُتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَطَنُوا أَنَّهُمْ أُحْيَطُ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" يونس : 22-23

"قُلْ مَنْ يُنْجِيْكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" قُلِ اللَّهُ يُنْجِيْكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ" الأنعام : 63-64
وقد جرت سنة الله أن يجيب المضطر إذا شاء ، كائنا من كان حتى ولو كان كافرا بالمعنى الاصطلاحي ما دام قد توجه إليه قال تعالى: "أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ" النمل : 62

والحوادث التي أخبر أصحابها بما جرى لهم فيها مما له علاقة بهذه الظاهرة كثيرة لا تعد فما من إنسان إلا وله قصة أو قصص، أنا وأنت وهو. وإليك أمثلة نختارها من بين آلاف أمثالها مما يجري كل يوم، تدل على أن الإنسان ليس وحده، فالله يرعاه إن كان أهلا للرعاية، أو يستجيب له إن دعاه بقلب مضطرب، أو يكله إلى نفسه، وما أكثر خسارة من وكله الله إلى نفسه؟ وفي كل حالة نجد رعاية غير متوقعة أو استجابة غير عادية فإن الإنسان يلمح آثار قدرة الله واستجابته وفي كل حادثة من هذا النوع يقع دليل على وجود الله عز وجل وهذه نقول لها علاقة بهذا المعنى:

1- نشرت مجلة المختار ريدر دايجرست في عدد أكتوبر 1944 تحت عنوان ألا تؤمن بالصلوة والدعاء هذه الحادثة التي صاغتها كما يلي:

واللهم تتدفق الأدلة التي لا تنقض من كل ناحية، على فضل الدعاء وقوته وليس مما يدهش أن يتوجه الناس في ساعة الشدة وال الحاجة إلى القوة الخارجية، وإنما الشيء الوحيد المدهش في هذا هو أن نراه مدهشا وما يصنع هؤلاء المصلون الداعون من الجنود والبحارة والطيارين؛ إلا كما صنع لنكولن الذي قال في أحلك أيام الحرب الأهلية: بغير معونة من الله الذي هو معي لا أستطيع أن أنجح وبهذه المعونة لا يمكن أن أخفق ولا يكاد يوجد فوق الأرض مخلوق لا ينطوي على الشوق الروحاني أو على شعور باطن بهم، بأن هناك قوة يتوجه إليها بفطرته. حدث لما اضطر الماجور لأن لندرج من وستيفيلد بولاية نيوجيرسي وهو يقود إحدى القلاع الطائرة للنزول في البحر في طريقه إلى أستراليا أن ساد الاعتقاد بأنه هو والتسعه الذين معه قد فقدوا،

وفي هذا يقول الماجور: تمكنا من الخروج على طوفين من المطاط وكذنا لا نفعل، ولم تكن معنا كسرة من خبز أو قطرة من ماء، وكان رجال الطائرة كلهم قلقين إلا الشاويش البرت هرناندز المدفعي الخلفي وقد عكف من فوره على الدعاء والابتهاج وسرعان ما رأينا بقوله: إنه يعرف أن الله قد استمع إليه وأنه سيساعدنا، وظلوا يهيمون تحت شمس محرقة وقد تشقت شفاههم وورمت السنتم فعجزوا عن مجاراة هرناندز في التهليل والتسبيح ولكنهم كانوا يدعون مع ذلك وبعد ثلاثة أيام وقبل دخول الليل لمحوا معلم جزيرة صغيرة، وما لبثوا أن شاهدوا ما لم يكن يجري لهم في خال فرأبقيت عليهم ثلاثة زوارق فيها رجال عراة الأجساد واتضح أن منقذיהם من أهل أستراليا الأصليين وهم صيادون سود الأ أجسام منفوشو الرؤوس وقد جاءوا من

داخل البلاد على مسافات مئات الأميال، وقالوا إنهم دفعوا بداعف غريب إلى تغيير اتجاههم فجاءوا إلى هذا الشاطئ المرجاني الذي لا سكان فيه وهناك لمحوا لندرة وزملاءه.

2- أذاع راديو دمشق في 11 / 10 / 1965 الساعة الثالثة إلا ربعا بعد الظهر ن克拉 عن مجلة الأبحاث الطبية الصادرة في إنكلترا حادثة نشرتها المجلة المذكورة بتوفيق الطبيب الذي جرت معه الحادثة والقصة أن شابا بقي مريضا بمرض مزمن مدة ثلاثة عشر عاما وأعيا الأطباء دون أن يصل إلى نتيجة وقد دخل عليه آخر كطبيب الطبيب الذي يروي القصة، وبعد أن أتم فحصه رأى أنه لا أمل له، وهناك سأله المريض بلهجة يائسة: لا أمل يا دكتور؟ فقال الدكتور: هناك أمل واحد في السماء فجرب أن تدعوا، ألا تعرف أن تصلي؟ ولأول مرة يدعو الشاب الذي دام مرضه ثلاثة عشر عاما، وعندما زاره الطبيب بعد أسبوع وجد المريض معافي، وقد شفي من مرضه الذي لم يستطع الأطباء أن يعالجوه منه.

3- وحدثنا شاب مصري ممن شاركوا في المقاومة السرية التي جرت في مصر في قناة السويس 1951 _ 1954 عن ثلاثة من المقاومين خرجوا لينسقوا سكة حيد في منطقة مكشوفة ... وكانت الليلة مقمرة والسماء صافية، والأرض صحراوية ترى حركات من فيها عن بعد، فيعرضهم ذلك لنيران العدو ومطاردته فقال أحدهم الثلاثة وهم ماضون: يا رب ولا غيمة، فلم يلبثوا أن شاهدوا سحابة تجلل وجه القمر فانتشر الظلام مما ساعدهم على القيام بمهمتهم ورجعوا وكلنا سمع ما حدث يوم الهجوم على مصر أثناء العدوان الثلاثي، إذ اشتعلت النيران في مدينة بور سعيد، وضاق الأمر بالناس ودعوا ربهم مخلصين، فكان المطر الذي أطفأ الحرائق يومذاك

4- والناس في كل مكان يتحدثون، فما من مسلم إلا وله تجربة خاصة في هذا الأمر تضيق به السبل، فيلجأ إلى اللجوء إلى الله لجوء المضطر ف تكون الاستجابة وتحصل الفرج. ومن أبرز مظاهر هذا المعنى قصص الاستسقاء حيث يلجأ المسلمون إلى الله في حالة القحط ولهم في ذلك آداب منها: التوبة، ومنها الصلاة والدعاء. ومنذ زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يتحدث المسلمون عن عجائب حصلت، وعن أناس مجابي الدعوة استجيب لهم، ومن تتبع حوادث ذلك وجدتها صحيحة أدق مقاييس النقد التاريخي إن ظاهرة الاستجابة ظاهرة تتجدد دائما كلما

توفرت شروطها، وهي تدل بشكل قطعي على وجود ذات عليا، تسمع نداء المنادين وتوصيات المتواصلين، وإذا شاءت تجيب المضطر أنى كان وكيف كان، مسلما كان أو كافرا. وتجيب المسلمين في كل الأحوال إذا كان متمتعا بشروط الاستجابة وكان في الاستجابة خير له، ولم يكن غيرها أحسن إليه منها: قال تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَ تَجِيئُوا لِي وَلَيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" البقرة : 186
"وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" غافر : 60

استجب لله يستجب الله لك ونihil من شاء التوسع في هذا الموضوع إلى كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التتوخي. ففيه ما يكفي. وإنما اختصرنا في هذه الظاهرة لكثره الحوادث فيها وظهورها والآن في البحث الثاني عن الرسول صلى الله عليه وسلم نماذج عنها.

الظاهرة الخامسة

ظاهرة الهدایة

إننا عندما ندرس الكون نرى فيه هداية كاملة، من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه، ومن أبسط أشكاله إلى أعقد مظاهره، فكيف نعمل هذه الهدایة؟ كيف وجدت؟ كيف استمرت؟ كيف ثبتت؟ إن هناك جواباً واحداً يقدمه العقل على ذلك، هو وجود ذات هداية.

1- ثعبان الماء متى اكتمل نموه هاجر من مختلف البرك والأنهار، قاطعاً آلاف الأميال في المحيط، قاصداً الأعماق السحرية جنوب برمودا حيث يلتقي ثعابين الماء من كل أنحاء العالم، وهناك تبيض وتموت، أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة تتعرف بها على أي شيء، سوى أنها في مياه قفرة فإنها تعود أدراجها، وتتجه طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمها. ومن ثم إلى كل نهر أو بركة صغيرة، ولذا يظل كل جسم من الماء آهلاً بثعابين الماء، ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوروبية أو العكس.

2- الزنبور يصيد الجندب النطاط، وينخره بإبرته في مكان مناسب بحيث يفقده وعيه مع بقائه حياً كنوع من اللحم المحفوظ، فلا يكثر السم فيه بحيث تميته، أو يسمم لحم الأولاد إذا أكلوا منه، ولا يقلله بحيث يبقى محتفظاً بوعيه فيفرب، وبعد ذلك يحفر له حفرة في الأرض، ثم تأتي أنثى الزنبور وتضع بيضاً في المكان المناسب بالضبط، ثم تغطي هذه الحفرة وترحل فرحة، ثم تموت بعد أن أمنت وسيلة الحياة لأولادها. وهم صغار لا يستطيعون الحركة، ولا بد أن الزنبور قد فعل ذلك من البداية من يوم وجوده أول مرة وكروه دائماً، وإنما بقيت زنابير على وجه الأرض.

3- الجراد البالغ من العمر سبعة عشر عاماً في ولاية نيوزيلاند. يغادر شقوقه تحت الأرض حيث عاش في ظلام مع تغير طفيف في درجة الحرارة، ويظهر بالملايين في 24 مايو من السنة السابعة عشرة تماماً. بحيث يضبط مواعيده للظهور في اليوم تقريباً بهداية يعجز عنها الإنسان لو لا أنه يستعمل التقويم.

4- خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاج، بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي نالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلما جمع البيض ووضعه في جهاز للتبريد، نصحه فلاح أن يقلب البيض إذ إنه رأى الدجاجة تفعل ذلك فسخر منه العالم، وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذي حرمه، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة.

واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس وفات ميعاده ولم تتفق البيضة، وأعاد التجربة وقد استمع إلى نصيحة الفلاح أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة، فصار يقلب البيض حتى إذا واتى ميعاد الفقس خرجت الفرايريج. وأآخر تعليل علمي لتفليب البيضة أن الفرخ حينما يخلق في البيضة ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إذا بقي دون تحريك أو عيته. ولذلك فإن الدجاجة لا تقلب البيض في اليوم الأول والأخير بهذه الهدایة الكاملة في عملية البقاء الجنس، يبقى الدجاج في العالم، لأنه يعلم تماماً ما ينبغي أن يفعله، ولا بد أن ذلك فعلته الدجاجة الأولى حتى استمر جنس الدجاج.

5- حيوان الإكسيلوكوب ، يعيش منفرداً في فصل الربيع ، ومتى باض مات ؛ فالأنهات لا ترى صغارها ولا تعيش لتساعدها في غذائها ودافعها عن نفسها، وهي لا تستطيع الحصول على غذائهما مدة سنة كاملة، لذلك ترى الأم تعمد إلى قطعة خشب، فتحفر فيها حفرة مستطيلة، ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية، وتحشو بها ذلك السرداد وتصنع بعد ذلك سرداباً آخرًا، فإذا فقت البيضة وخرجت الدودة كفاحاً الطعام المدخر لسنة.

6- يمتص جذر النخلة العناصر الغذائية في التربة بالشعيرات الجذرية وتتصعد العصارة بالضغط الاسموزي إلى الأعلى، ويتغذى جذع النخلة بما غلظ من هذه العصارة، أما الخلاصة فتصعد إلى حيث تغذي الأجزاء العلوية، وترتفع العصارة الدقيقة لتكون الثمرة وقمع البلاحة هو مصفاتها التي تسمح بمرور المواد الغذائية تماماً إلى الداخل تماماً وهي التي تكون الحلو من البلاحة وغير الحلو من النواة والتي منها ينشأ جسم البلاحة الطري وهيك النواة الصلب، وبين الحلو والمر والصلب والطري غلاف شفاف لا يكاد يرى، ولم يحدث إطلاقاً أن أخطأت نخلة فكونت نواة البلاحة في الخارج والبلاحة من الداخل، أو كونت البلاحة صلبة والنواة طرية

7- الحيوان المنوي يشبه العلق في حركته، له رأس مفلطح وعنق قصير، وذيل طويل، ويتحرك ب Lolli بذيله، وقد أمد بقوه مقاومة، إذ أنه في الأجواء غير الملائمة تستكن الحياة فيه ويفقد مظاهر نشاطه، فإذا ما وجد الوسط المناسب عادت له حيويته ونشاطه، ويستمر في الحياة عدة أيام متواتلة في انتظار البويضة التي يدفع بها مبيض الأنثى - وهو جهاز التناول عندها - ليقوم بإخصابها، ويتم كل ذلك بهدایة منقطة النظير إذ لا دخل له بأی قوہ _ كائنة ما كانت كيماوية أو حيوية أو عقلية أو ادراكية في توجيه الحيوان المنوي إلى بویضة الأنثى

-7 في عملية الرضاع كل شيء يتم بهدایة . تنمو الغدد التي تصنع اللبن أثناء الحمل، يدفعها إلى هذا النمو مواد يفرزها المبيضان، وفي نهاية الحمل وبدء الوضع ، تتناثر هذه الغدد النخامية الموجودة في قاعدة الجمجمة أمراً بالبدء في صنع اللبن، وما يكاد الطفل يولد حتى يبحث عن ثدي أمه بهدایة لا حد لها، وعملية الرضاعة عملية شاقة، إذ أنها تتضمن انقباضات متواتلة في عضلات وجه الرضيع ولسانه وعنقه، وحركات متواصلة في فكه الأسفل، وتتنفس من أنفه ويقوم الطفل بهذا كله بهدایة تامة من أول رضعة لساعة فطامه.

وقالوا: إن الرجل نفسه لا يستطيع أن يقوم بعملية الرضاع كما يقوم بها الطفل الذي لا يتجاوز عمره ساعات هذه أمثلة قصدنا بها لفت النظر إلى ظاهرة الهدایة ، فإذا ما التفت العقل ودرس الوجود كله بعمق ، يرى هذه الظاهرة في كل شيء، فهي ظاهرة تتنظم شؤون الكون كله من الإلكترونات في الذرة ، إلى الذرة، إلى العناصر، إلى الأرض، إلى الشموس، إلى المجرات بكل حوالتها إلى كل خلية من خلايا الحيوان، إلى كل جهاز من أجهزته، إلى كل حيوان من وحيد الخلية ، إلى النحلة، إلى الإنسان قال تعالى: "قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" طه : 50 تلك الكلمة القرآن وهي كذلك كلمة العقل، وهي كذلك كلمة العلم، إن هدایة بلا هاد غير مقبولة لا عقلا ولا علمًا إن الله ظهر باسمه الهدایي في كل شيء، ومع ذلك ضل الكافرون عن الله، وأضلوا قلوبهم، وهم في ضلالهم مهتدون إلى طرق الظلال والزيغ، إذ أن الإنسان بما أوتي من إرادة و اختيار، وبما امتحن به في هذه الحياة أكثر ناتج عن هذه الإرادة، قد ركب تركيبا ظهر فيه اسم الله الهدایي بما يتافق مع هذه الحرية في الإرادة ومع هذا الامتحان: "وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاها" * فَلَهُمَا فُجُورٌ هُنَّا وَتَقْوَاهُمَا" * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا" * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" الشمس : 7-10 "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى" * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" النازعات : 40-41

إن الكافرين قدّيما كانوا يعتبرون الدعوة إلى الله وتعليل كل شيء به نوعاً من الافتراء والكذب والأسطورة قال تعالى: "قَالَ رَبِّيْ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثٌ أَحْلَامٌ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ" الأنبياء : 4-5

والكافرون اليوم: يعتبرون كل كلام غير كلامهم ، لا يقوم على علم، بل تظهر منه رائحة الخرافية، أو فيه معنى الأسطورة. إن التشابه الكامل بين الموقفين في القديم والحديث دليل على وحدة النفس البشرية، وإن كان المحدثون أكثر فلسفة وأزهى زخرفا، كما أن فيه دليل على نوع من الهدایة إلى الضلال، كھدایة المھتدین إلى الھدی ، (ونذل) ظھور اسم الله الھادی في عالم الإنسان قال تعالى: "وَهَدَنَا إِلَيْنَا النَّجْدَيْنِ" البلد : 10 "إِنَّا هَدَيْنَاكُمْ سَبِيلًا إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" الإنسان : 3

إن الكافر يرى أن بإمكانه أن يعلل كل ظاهرة من ظواهر هذا الكون بدون الله والذي لا يستطيع أن يعلله الآن يتصور أن باستطاعته أن يعلله في المستقبل، وصرف النظر عن كون هذه التعليقات علمية عقلانية أو ظنية حدسية، فإنه مقتضى بها ولا يقبل أي تفسير آخر ولو كان علمياً وعقلياً، لأن كثرة الاحتمالات عنده لا تبطل ظهور الممكن الواحد، وتعدد مظاهر الوجود يقنعه بأي تفسير يتوهمه كأثر عن استشعاره لذاته المتصف بالعلم والقدرة والإرادة والحياة، فهو يخلع بهذه المعاني على الكون متناسياً أن الطبيعة بمجموعها ليس لها علم ولا إرادة وقدرة وحياة . إن يقول عن كل شيء يراه: إنه ممكناً ونحن إن لم نقل بإمكانه نكر (نخرج عن الإسلام) ولكن نقول بذلك: إذا وجد علم الله وإرادته وقدرته. أما بغير علم ولا إرادة فلا إن الله ظهر كثيراً وبطن كثيراً، ظهوره الكبير جعل المؤمنين به كأنهم يعاينون كشف الحجاب ما ازدلت يقيناً وبطونه الكبير جعل الكافرين على مثل اليقين بأن الأولين واهمون، ولا يمكن في حكم العقل إلا أن يكون الله ظاهراً وباطناً واحداً: ظاهراً للجنان، وخفياً عن العيان؛ يظهر للعيان خلقه ، وخلقه يدل الجنان عليه لذلك قال الله تعالى: "وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدَ قَبْلَهُ" التغابن : 11 ليس في خفاء الله حجة لكافر على كفر، وقد رأينا هذا في مقدمة أبحاثنا، وفي ظهوره الحجة الكاملة على الإيمان، وإذا كان في ضلال الضالين نوع هداية إلى الضلال، إذا حرموا أنفسهم الرؤية الصافية فشاهدو الأمور معكوسة، فإن في هداية المهندسين المظاهر الكامل للهداية التامة.

ولكن كما أن في هداية المهدتدين دليلا على ظاهرة الهدایة، فإن في هداية الضالين إلى طرق الضلال دليلا عليها كما سنرى بعد، والكل يدل على أن هنالك ذاتا هادیة. إن آيات الله التي تدل عليه واضحة جدا في كل شيء، ولكن الاهتداء إليها يحتاج إلى إنسانية أكثر، وإلى أخلاقية رفيعة قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَخَذُوا هُوَ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَخَذُوا هُوَ سَبِيلًا بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" الأعراف : 146

إنها الحقيقة التي لا ترد: الكبير والغفلة عن آيات الله هما طريق الكفر، والخضوع للحق وقبوله واليقظة على آيات الله هي طريق الإيمان. فبمزيد من أخلاق الإنسان، وبمزيد من التأمل، وبمزيد من طلب الحق، يصل الإنسان إلى الله. فإذا قيل: إن المرجع في الهدایة إرادة الله.. قال تعالى: "وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًاهَا" السجدة : 13 يقول: إن المرجع في كل شيء إرادة الله ، وليس في ذلك عذر لمعتنز أو متهرب أو متحلل من المسؤولية لقد قال الله: "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرُ لِلْعَالَمِينَ" لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ التكوير : 27-28 فقال أبو جهل: ذلك إلينا إن شئت . فأنزل الله تتمة: "وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" التكوير : 29 وهذا يعني أن مشيئة الله محيطة بكل شيء ، ولكن لا يعني هذا إلغاء اختيار الإنسان ومشيئته.

قال تعالى: "يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبْلَ السَّلَامِ" المائدة : 16
"ضَلَّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضْلِلُ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ" البقرة : 26

إن الله إذا أراد أن يضل إنسانا ظهر له في الوجود كله باسم المضل، حتى لم ير في آيات الله في كل خلقه ما يدل عليه: وكذلك في آياته في القرآن حتى لا يرى فيها آية تدل عليه، وليس في ذلك إجبار من الله له؛ بل ذلك لأن الإنسان ذاته اختار الطريق الآخر كبرا وظلمًا، فصار يرى الآيات معكوسة، مما فيه حجة على الإيمان صار يعتبره حجة له على الكفر، وذلك كأكثر من إحاطة هداية الله في الطريقين، والذي يتحمل المسؤولية هو الإنسان ذاته.

تعالى الله أن يسأل تغيير ما سن من سنته، وعلى الإنسان أن يحقق ما طلب منه ضمن هذه السنن ويقول الكافرون: إن الله قادر على أن يهدي الناس كلهم إلى ما يحب؛ فلم لم يهديهم؟ وإن الله قادر على أن يجعل العالم خاليا من كل شر؛ فلم لم يفعل، يقولون هذا حتى يقولوا أخيراً:

كون العالم فيه ضلال وكونه فيه شر ، فذلك دليلان على أن هذا العالم ليس من صنع الله ويقولون للمؤمنين: ما دمتم تؤمنون بالقضاء والقدر ، فما نحن فيه من انحراف قدره الله علينا ولا مخرج لنا من قدره، فهو المسؤول إذن ولسنا المسؤولين فلا تلومونا ألم يقل: "يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء". ونقول: كلمتهم هذه قالها الكافرون من قبل، ورد عليهم القرآن أي رد: "وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آباؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبِبُوا الطَّاغُوتَ فَمَنْ هُدَى اللَّهُ وَمَنْ هُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ " النحل : 35-36

نفس اللغة القديمة للكافرين استعملها كفار عهد الدعوة الأول، واستعملها كفار عصرنا الحاضر: "سيقولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا آباؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بِأَسْنَانَ قُلْ هَلْ عِنْدُكُمْ مَنْ عِلْمٌ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ" الأنعام : 148 ترى ما قيمة حجة المكذبين؟ يلاحظ في الرد القرآني أنه رماهم بالتكذيب لرسل الله صلوات الله عليهم، وأنه بلاغ الرسل - صلوات الله عليهم - فيه الحجة عليهم.

إنهم نظروا إلى عموم مشيئة الله ولم ينظروا إلى مشيئتهم، فأرادوا أن يقيموا الحجة على الله بكماله، فأقام الله عليهم الحجة بمشيئتهم التي استعملوها في غير طريقها الصحيح. إن ما كتب الله، وما علم الله، وما أراد الله، لا يسلب الإنسان اختياره، كلاما خطأ عظيم: أن نظن أن الله لا يعلم ما سيحدث، أو نظن بأن علمه بما سيحدث يسلبنا اختيارنا. فالعلم كاشف لا مجر، وإذا كان علمه تعالى لا يسلبنا اختيارنا. فكذلك إرادته وكذلك قدرته، فالقدرة تبرز ما خصصته الإرادة والإرادة تخصص ما سبق به العلم إنه من الخطأ أن نفهم قوله تعالى: "يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" فاطر : 8 بأنه يجبر على الهدایة ويجبر على الضلال بل: "فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" الصف : 5

"قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا" وقد خابَ مَنْ دَسَّاهَا" الشمس : 9-10 "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ" لمن شاء مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" التكوير : 27-29

إن إرادة الإنسان موجودة؛ ولا يعني هذا أن هناك شيئاً يكون خارجاً عن إرادة الله، وعموم الإرادة الإلهية حق؛ ولا يعني هذا سلب الإنسان حريته واختياره.

وأخيراً: لقد خلق الله كل شيء، حسياً كان أو معنوياً، ومن الأخلاق الفاسدة إلى الأخلاق الحسنة، إلى الإنسان، إلى الوجود كله، وأعطى كل شيء هدایته، فالكبير مهتدٌ إلى طريقه، وكذلك الحسد، وكذلك الضلال، وكذلك كل نوع من أنواع الضلال، الشمس، وكذلك القمر. وبالنسبة للإنسان خاصة: ذاته، ونفسه، وجسمه، وكل شيء فيه مهتدٌ إلى طريقه إذا ترك على سجيته، ولكن هذا الإنسان بما أوتي من ملائكة أهلته للتکلیف، جعل الخير والشر له فتنة قال تعالى: "وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً" الأنبياء : 35 ونتيجة لهذا فرض عليه أن يحاول التغلب على كثير من ميوله ورغباته وأهوائه وشهواته، وأن يكيف ذاته حسب هدى معين، حدده له الوحي الإلهي، ليقوم بدوره على هذه الأرض ضمن طريق مخصوص. وعلى هذا فانحراف الإنسان عن هذا الطريق ضلال، وإن كانت فروع هذا الضلال من الهدایة التي أعطيت لكل شيء في موضوعه قال تعالى: "وَهَدَيْنَا النَّجْدَيْنِ" البلد : 10 ولكن كون الإنسان يستطيع أن يتخلّى عن هذا الضلال - ولو على حساب متعته - فإنه مفروض عليه أن يعمل كي يحقق معنى الابتلاء، ولذلك كان: "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات" رواه مسلم.

وفي الظاهره السابعة زيادة بيان إن شاء الله - وإنما قصدنا في هذه أن نشير إلى الهدایة الكاملة لكل شيء - مخلوق حسي أو معنوي - تشير إلى ذات هادیة: "أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" طه : 50. مما من شيء إلا وعنه نوع هدایة عامة. حتى الأشياء المعنوية خيراً كانت أو شراً، ولكن الإنسان كلف بنوع خاص من الهدایة، وعليه أن يسعى لتحقيقه. والأهم بعد: أن يكون واضح لدينا الهدایة في كل شيء لا يمكن أن تكون إلا بالله الهادي.

الظاهرة السادسة

ظاهرة الإبداع

أرأيت لوحة رسام قال الناس عنها: إنها أثر عظيم؟ قل لي: لماذا حكم الناس عليها هذا الحكم؟ سنقول لما فيها من إبداع في التصوير والتعبير والجو والظل والتأسق والتفاعل والمعرفة، بما يثير الإعجاب في نفس المشاهد، إنك تقول بدهشة أو بإعجاب: لقد أبدع هذا الأثر فلان، ترى ألم يخطر ببالك وأنت أمام مشهد إبداعي عظيم من هذا الكون، أن تفك في المبدع الأعظم الذي أبدع هذا الكون، أو أن الألفة أعمت البصر عن الرؤية؟ إنك لو تأملت لوجدت: أن الجمال والإبداع يبدوان ملازمين لكل شيء في الكون: السحب، قوس قزح، السماء الزرقاء، النجوم ذات الألوان وانتشارها وانتظامها وحركاتها وهندستها، القمر ساعة طلوعه عندما يكون بدرًا أو هلالًا أو ساعة توسطه قبة الفلك، الشمس في غروبها وشروقها، الفجر والأصليل، روعة الظهر، كل ذلك آثار إبداع عظيم. إن أعظم فنان هو الذي يستطيع أن يرسم جزءاً مما في الكون للحظة من لحظاته بأمانة، أما الكون فكل مظاهره التي تتكرر أو تتتعاقب أو تتغير صور من الجمال تشير في النفس كل أن مباحث من الروائع. كل ورقة من أوراق الشجر منظمة أبدع نظام، مخططة أجمل تخطيط، تخطيط وإبداع يقلد ولا يصنع، تجده على أروع ما يكون في الأزهار، برشارتها الفاتنة وتصميماتها الرائعة وألوانها الموزعة، بشكل يحافظ كل زهر معه على سمات جماله وتناسق ألوانه، وإنك لتتجد في كل زهرة إحساساً جيداً، وهي بديعة عندما تجتمع جنساً واحداً، ورائعة عندما تكون أجناساً، فالورق والزهر والساق والغصون والفروع والثمار، كلها إبداع عجيب، منفردة كانت أو مجتمعة موصولة أو مقطوعة.

والوادي الأخضر والنهر والأشجار الباسقة، والصخور والجبال يجلل قممها الثلج، أو التي تسبغ عليها السماء زرقتها من بعيد، وكثبان الرمال الفسيحة الممتدة في الصحراء، والتابع المنمق الفاخر لأمواج المحيط وتلاطمها على أرض الشاطئ، والهدير والخرير والصفير والرفيف والحفيف، وصوت الرعد، ولمعان البرق: أليس ذلك كله جميلاً وبديعاً ومبهجاً حتى عندما يخيف؟ والطيور فوق البحر أو فوق الغابة أو على الأرض هاربة منك أو مذلة بين يديك، ألوانها المتناسقة، أشكالها الزاهية، نقشاتها الفاتنة، تصميمها الجميل، أصواتها العذبة، حركاتها

الفاتنة، في كل ريشة منها جمال، وفي كل شعرة فيها رونق، وفيها جناحها ساعة يمتد وساعة ينقبض يرتفع أو ينخفض؛ ما يجعل القلب يمور شعورا حيا واغتيابا.

قطع الثلج ذات الأشكال الهندسية المختلفة، والخطوط البلاورية للعناصر والمركبات والألوان العناصر منفردة أو مركبة، وتركيباتها أجزاء وكتلا، كروية الأرض، وسحب المريخ، ووجه القمر، وكلف هذا الوجه، كل ذلك جميل لدرجة مدهشة تحت المجهر أو بالعين المجردة. وفي الجمال جمال، وفي الغنم جمال، وفي البقر جمال، وفي الماعز جمال وفي الكلب جمال، وفي الهرة جمال، وفي كل خلق الله الجمال، في مراحه ومغاداه، في سكونه وممشاه. في حركات السمك وتموجات حشائش البحر في الأعماق، أو تموجات حشائش البر إذا مر النسيم، في العظام المكسورة التي تشفى، في الجرح الذي يلتئم بعد إذ تمزق لحمه، في دورة الدم، في القلب الذي يتحطط، ثم ينجرب بعد كسر، في حبوب اللقاح، في النحل تنتصس رحيق الزهر، في تقبيل الفراشة ميسم الزهرة، في انتقالها إلى ميسم آخر، في نقلها حب اللقاح على زهرة أخرى، في التلقيح، في التزاوج، في انجذاب القرین إلى قرينه، في كل شيء إبداع.

إن التناسق الذي نراه في كل مخلوق، انسجام الأعضاء بعضها مع بعض، انسجام اللون مع الأعضاء جعل كل شيء في محله، كل ذلك إبداع يشير إلى مبدع.

قال تعالى: "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ" السجدة : 7

"بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" الأنعام : 101

"ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ" الزمر : 7

إن هذا الإبداع من أ杰لها أيها الإنسان قال تعالى: "إِنَّمَا تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً" لقمان : 20
"وَإِن تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُو هَا" النحل : 18.

إنه من أ杰لها حتى تعرف ربها بأسمائه كلها وتشكره جل جلاله وتعبده بحب وعشق، ولذلك جعل فيك الإحساس بالإبداع، وحب الجمال، فكان ذلك من أروع الإبداع لو عقل الإنسان. لقد أعطي الإنسان الفكر والتصور والشعور، فصار يتذوق الجمال، ويُسرح بخياله من البداية إلى النهاية، ويذكر بسرعة البرق آلافا من لوحات الوجود، ويخترق بخياله حجب السماوات

والأرض، مع الإدراك الذي يجعله يتفاعل مع كل شيء، في فهو ويرحب، يمل ويبغض، ويصمم تارة للبناء وتارة للهدم، فيجعل الحياة فناً والمعنى جهازاً. إن في ذلك كله إبداعاً سواء في ذلك باطن الإنسان أو ظاهره، أو ما يحيط به، وقد يرسم الرسام صورة الجميل فيبدع، وصورة القبيح فيبدع، وفي كلتا الحالتين يبقى الإبداع إبداعاً وفي كليهما يكون محسناً، وفي الكون جميل وأجمل، وقبيح وأقبح، ولكن وفي ذلك كله يظهر الإبداع في ذلك أكثر، فلن يعرف الجميل إلا بالقبيح ولا الأجمل إلا بالجميل، وتعدد الصور أكثر إيماء، وأبقى تجديداً، وأدل في القدرة على الإبداع.

فلا يفوتك يا صاح أن ترى الإبداع ولا تعرف المبدع، أو تلمس الإحسان وتتسى المحسن، أو تعشق الجمال ولا يمتلى قلبك بحب خالق الجمال، بل ترنم مع الحدا:

عذابه فيك عذب
وبعده فيك قرب
وأنت عندي كروحي
بل أنت منها أحب
حسبني من الحب أني
لما تحب أحب

الظاهرة السابعة

ظاهرة الحكمة

قال تعالى: " قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ " يونس : 101

"أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ " الأعراف : 185

"وَكَائِنٌ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ " يوسف : 105
"وَلَقَدْ ذَرَانَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا
وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " الأعراف : 179
إن الله لا يقبل من المسلم إلا أن يرى في كل شيء آية تدل عليه اعتقادا، وتدلنا إلى ذلك استشعارا، وإن لم يصل المسلم إلى هذا المستوى الرفيع، فإنه بحاجة إلى يقظة أكثر وإلى فكر أكثر، وإلى ذكر إن يد الله التي خلقت أرت نفسها في خلقها، وإرادة الله التي خصت أرت نفسها في مبدعاتها، وحكمة الله ظهرت فلم تخفي.

وإن قلبا لم ير آثار الله في كل شيء أصبح قلبا أعمى قال تعالى: "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ التَّيْ فِي الصُّدُورِ " الحج : 46 ولعله محل للشقة: "فَلَعَلَّكَ بَاخْعُ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا " الكهف : 6

لقد أمرنا الله أن ندرس آياته في هذا الكون، والكون ذاته يستلفت النظر، ولقد درسه الكافرون والمؤمنون على السواء، وليس هناك من فارق بين الطرفين في العلم بهذا كثرة أو قلة، ولكن الفارق إنما هو في استعمال العقل وقوانيقه للوصول إلى ما وراء الكون، أو بالجمود على رؤية الحس وعدم استعمال العقل والرکون إلى التراب.

ولئن أكثر القرآن من ذكر: إن في الكون آيات لقوم يعلمون، أو يتذكرون فقد أكثر كذلك من ذكر: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لِيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " النحل : 12 مما يدل على أن تحكيم قوانين العقل شرط لمعرفة آيات الله وعلى هذا فكل ظاهرة من الظواهر التي ذكرها في هذا الكون، لا ندعى أننا وحدنا نعرفها، فنحن والكافرون مشتركون في هذه المعرفة، ولكن الفارق أننا نعمل وجود هذه

الظاهره يلزمه العقل الذي لا بد منه، وهم يرفضون هذا التعلييل دون دليل؛ كمهندسين وفناً أمام بناء جميل، فكلاهما يستوي في كون يعرف كل ما في البناء من أجزاء، من معرفته بكيفية الترتيب، إلى معرفته بكيفية التركيب، إلا أن أحدهما جزم أن هذا البناء قد كان دون أن توجد خبرة وعلم وإرادة وقدرة وإبداع وحكمة وذوات تقوم بها هذه الأشياء، والآخر حكم على البداهة بأن مهندسا عالما حكيمًا. قد أظهر هذا البناء. إن المسألة بكل بساطة في هذه، وعندما ينافش الأول عقليا في الحكم الذي أصدره يقول: إنني فيما يستقبل من الأيام سأكشف كيف قام هذا البناء بنفسه، مع أن العقل ببداهته يحكم أن زمانا أكثر سيعطينا تفصيلات أكثر في أمر البناء، تدلنا على صاحبه بشكل أوسع وأدق وأين يلغى الحكم البداهة أبدا.

والكون كلما تكشف أكثر دل على الله أكثر، وهذه الظاهرة التي ندرسها الآن (ظاهره الحكمة) خير شاهد على ما قلناه، فالإنسان العادي يرى أن في الكون حكمة فيتعرف بها على الله الحكيم، وكلما ازداد علمًا زادت معرفته بهذه الحكمة؛ فما رأينا العلم إلا كاشفاً للحكمة.

وإن أكبر مصيبة ابتلي بها المؤمنون في هذا الزمان، هي دعوى الكافرين العلم حين يكفرون وأن المؤمنين لا يعلمون، وساعدهم على الظهور بهذه الدعوى أن أكثرية المؤمنين في زماننا أقل علماً بظواهر الحياة الدنيا من الآخرين، ولكنه بدأ العصر الذي يصبح فيه المؤمنون أكثر علماً بظواهر الحياة الدنيا، وبدأوا يثبتون أن مزيداً من العلم يعطي مزيداً من الإيمان.

قالوا عن الحكم: إنها وضع الشيء في محله، وبالنسبة للكون بإطلاق: ألا يكون شيء منه يمكن أن يكون أحسن في غير المكان الموجود فيه؟ وهذا واقع الكون، فكل ما فيه على غاية الحكمة، فليس بإمكان العقل أن يتصوره حكم مما هو فيه. وادرس كل شيء فيه، أجزاء وكتل، تجد الحقيقة ناصعة تقول لك على لسان حالها: ما أنا عليه من عين الحكمة وهذه أمثلة:

1- لو لا الموت ماذا يحدث؟ قالوا: لو أن ذبابتين توالتا هما وأولادهما دون موت فإنه بعد خمس سنوات تتشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها 5 سم، وهذا جنس واحد من المخلوقات، فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتواجد ولا تموت، ومن هذا نفهم حكمه المرض، وحكمة وجود مسببات الأمراض من جراثيم ونحوها، ويقول قائل: ترى لو كان الإنسان يموت بلا مرض أليس أحسن؟ أو لو كان يموت بمرض واحد فمتى أصيب بمرض كانت نهايته فيه؟

وقد غاب هؤلاء حكمة وجود الأمل، وحكمة الإنذار وحكمة البصر، وحكمة الاعتبار بهذا الواقع.

2- ما يخرج من الإنسان وحده، كان يمكن أن يملأ الدنيا، لو لا وجود أنواع البكتيريا والعوامل الكثيرة التي تؤثر في تحويل وإبادة هذا الخارج، ومن هنا نفهم حكمة وجود كثير من الموجودات التي يتصور الإنسان مبدئياً أنه لا ضرورة لها، وبالتالي يتوهم أنها موجودة لغير ما حكمة، إنه لو لم يكن في بعض المخلوقات إلا جمالها لكتفى الجمال ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها تخيف لكتفى ذلك حكمة، إن وجود الخوف من أكبر الحكم، إذ يعلم الإنسان الحذر، وبالتالي ينمي قدراته، ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها ترتكب محلها مع ما قبلها وما بعدها لتدرك على التناقض، لكن ذلك وحده حكمة، ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنك ترى فيها عجائب خلق الله وقدرته لكتفى ذلك حكمة.

3- ويقول بعض الناس: وحتى الشر فيه حكمة؟ وكذلك الألم؟ أليس العدل خيراً من الظلم، والرحمة خيراً من القسوة؟ والرعاية خيراً للتيتيم؟ والإيمان خيراً من الكفر؟ والقيام بالواجب خيراً من إهماله؟ وبالتالي فما الحكمة في وجود هذه النقائص وغيرها خير منها؟
ويصل الأمر ببعضهم إلى أن يسألوا لم خلق الله الشر؟ وإلى أن يقولوا: إن وجود الشر دليل على لا إله لأن الإله ينبغي أن يكون خيراً، ولا يصدر عنه إلا كل خير ونقول: أن نحب معرفة الحكمة في كل شيء، أو نسأل حتى نعرف أو أن نحاول المعرفة، فهذا شيء لا غبار عليه مع ملاحظة أن القصور في معرفة الحكمة لا يعني عدم وجودها. وأما أن نسأل الله لم فعلت؟ فهذا لا، ولا يسأل هذا السؤال إلا الجاهل بجلال الله وإحاطة علمه ومتناهى محدودية الإنسان بالنسبة لعدم تناهي كمالات الله، والعالم إذا فعل عن علم لا يسأله الجاهل لم فعلت؟ وكما قال الله عن الإنسان: "وَمَا أُوتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" الإسراء : 85 وإن: "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعُلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ"
الأنبياء : 23

وأما أن نقول: إن وجود الشر دليل على أن لا إله فإن هذا محض الجهل، ومحض الضلال، ومحض عدم المعرفة بقوانين الكون، فإن وجود الله قائم عليه من البراهين؛ بحيث يأخذ حكم البداهة عند كل إنسان لم تتعطل ملకاته. وإن ففي دائرة التعرف على الحكمة نجيب على

التساؤلات الآتية: الزنى شر، فهل خلق آلاته شر؟ لقد خلق الله للرجل أعضاء تناسلية وكذلك لأنثى، وخلق عند الرجل شهوة وكذلك عند المرأة شهوة، والحكمة واضحة، فيما خلق الله، ولكن الإنسان هو الذي نقل استعمال هذه الآلات من الوضع الحكيم الذي خلقت له من أجل بقاء الجنس، على حالة الفوضى الجنسية، فليس الشر إذن من خلق هذه الأعضاء، وإنما الشر فيما فعله الإنسان متجاوزاً الحدود التي خلقت الأشياء من أجلها.

وشرب الخمر شر؛ فهل خلق العنب شر؟ إن العنب في حد ذاته شيء طيب جميل والحكمة في خلقه واضحة، والإنسان هو الذي نقل العنب من وضعه الصالح الطيب إلى الوضع الخبيث الفاسد، واستعمال الحديد في القتل غير المشروع شر، فهل خلق الحديد شر؟ عن وجود الحديد فيه من الحكم مالا يعد ولا يحصى، وإنما كان استعمال الإنسان له استعمالاً خاطئاً هو الشر. والحسد في حد ذاته الذي هو تمني زوال النعمة عن المحسود شر؛ فهل خلق ملكة التنافس عند البشر شر؟ إن ملكة التنافس عند الإنسان من أكبر العوامل التي تؤدي إلى ازدهار العمران وصلاح الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي حرف هذه الملكة فيه فكان الشر. فالشر من صنع الإنسان وليس في وجود الملكة، وال الكبر الذي هو غمط الناس وبطر الحق شر، فهل خلق طلب الكمال والعلو المشروع شر؟ لقد خلق الله عند الإنسان استعداداً كي يطلب الكمال ويطلب العلو في الكمال؛ ولكن الإنسان هو الذي حرف هذا الاستعداد فجعله كبراً، فكان شراً. فالإنسان إذن هو الذي بتتباه عن تحقيق الحكمة بما خلق الله، يحيي الخير إلى شر والصلاح إلى فساد .

والسؤال الآن: ما الحكمة في جعل هذا الاستعداد الهائل عند الإنسان للخير والشر والجواب على ذلك:

1- كي يستعمل الإنسان طاقاته كلها فلا تعطل طاقة، طاقة العقل، وطاقة الإرادة وطاقة الروح، وطاقة الفكر وطاقة الجسد فتظهر بذلك كمالات الإنسان في حالة استعمال كل طاقة في طريقها الصحيح، وفي إيجاد التوازن بين هذه الطاقات، وبالتالي يعرف فضل الله على الإنسان. أو في حالة تعطيل بعض الطاقات وإطلاق بعضها الآخر على غير طريق الحكمة يظهر قبح الانحراف عن سنن الله، وأثاره السيئة فيرجع الإنسان إلى الطريق الصحيح.

2- وبهذا يعرف الإنسان الله حق المعرفة: إذ لا يعرف أن الله غفور إلا أن أخطأ الإنسان واستغفر، ولا يعرف أن الله تواب إلا إذا تاب الإنسان بعد الذنب وأيقن أن الله يتوب عليه، ولا تعرف قدرته المطلاقة على خلق كل شيء من خير وشر وهدى وضلال، إلا إذا كان هدى وضلال وخير وشر، وبالتالي لا يعرف الله حق المعرفة إلا إذا كان الإنسان على ما هو عليه، ولذلك كانت حكمة الله في خلق الإنسان والجن هي معرفته: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" الذاريات : 56

إن الإنسان لا يعرف أن الله مجيب إلا إذا اضطر فدعاه واستجاب، ولا يعرف أن الله رزاق إلا إذا شاهد وصول الأرزاق إلى كل مخلوق. ومن هنا ندرك أسرار كثيرة من الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

3- والذين يطلبون أن يكون عالمنا هذا خيرا محضا يخطئون، إذ أن الحكمة من وجود هذا الكون والإنسان وحياته الأولى فيه هي الابتلاء، ولا ابتلاء إلا بوجود خير وشر، وإنما ينجح الإنسان في الامتحان إذا بذل جهدا إراديا للخلاص من الشر والإقبال على الخير: "وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ" الأنبياء : 35 "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً" الملك : 2 "وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا" فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" الشمس : 7-10 "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمُلْوَى" النازعات : 40-41 فإذا ما نجح الإنسان في امتحان الحياة الدنيا؛ كان مرشحا للحياة في عالم الخير المطلق في الآخرة "لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ" الأنعام : 127 ومن سقط كان أهلاً لدخول دار الجزاء على الشر "جَهَنَّمَ يَصْلُوْنَهَا وَبِئْسَ الْقُرْارُ" إبراهيم : 29 "جَزَاءٍ وِفَاقًا" النبأ : 26

4- وإن الإنسان إذا استعمل عقله بعلم، سيجد أنه من أصغر ذرات هذا الوجود، إلى كل جزء من أجزاءه، إليه جميـعا، مليـء بالحكم، ولن يجد الإنسان شيئا فيه قد خلا من أجمل الحكم، والأمثلة التي ضربناها في ظاهرة الهدایة أو الإرادة أو الإبداع ، كلها تصلح أمثلة على الحكمة المبثوثة في كل خلق الله: "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ" السجدة : 7 . "صَنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ" النمل : 88 وهذه أمثلة أخرى جزئية تصلح شاهدة على ظاهرة الحكمة في إطارها الكبير:

1- ترى لو كانت عيناً الإنسان في أعلى رأسه أو في أسفل ذقنه أو في مؤخرته أو ... ؟ أكان ذلك حكم؟ أم كونهما في مكаниهما الحاليين؟ ترى هل هناك جزء من الإنسان كان خليقاً أن يكون حكم في غير محله؟ إن إنسان يحترم عقله لا يمكن أن يقول: نعم. (وكأبسط مثال يضرب في تبيان مواطن الحكمة في أجزاء الإنسان يد الإنسان، إنه من الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل، أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف، فحينما تزيد قراءة كتاب تتناوله بيده، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة، وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائياً، وحينما تقلب صفحاته تضع أصابع يده تحت الورقة وتضغط عليها بالدرجة التي نقلبها بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقة، واليد تمسك القلم وتكتب به، وتنستعمل الآلة، ويأكل بها الإنسان، ويفتح بها النافذة، ويحمل بها ما يريد، ويلمس بها، وقد يستعملها في تحسس الجمال لنقل إحساساته إلى قلبه، حتى الأظافر فيها؛ تحمي الأطراف لأنها أكثر تعرضاً للإصابة، وبدون الأظافر لا تستطيع أن تحك جلده أو تلقط الأشياء الدقيقة، وأخيراً فإن الأظافر هي الميزان الصحي للإنسان، إن كل ما فعله الإنسان ساعدت فيه إلى أكبر حد حركة إيهام يده، ولو كانت غير متحركة كإيهام القرد مثلاً؛ فإنه لا يستطيع أن يفعل الكثير مما يفعله الآن)

2- شفة الجمل العيا مشقوقة كي تساعده على أكل نباتات الصحراء الشوكية، وخفافه تناسب الرمل فلا تغوص فيه؛ بخلاف ما لو كان له ظلف أو حافر، وأهدابه الطويلة كالشبكة تحمي عينيه من ذرات الرمل، وسنامه يكزن غذاءه فيه لأمد طويل في غيبة الطعام.

3- النتح في النبات عبارة عن تبخّر الماء من النبات عن طريق الأوراق، الأمر الذي يساعد على صعود العصارات من الأرض خلال الجذور، وتنتمي عملية النتح بواسطة ثغور موجودة على الورقة، وهذه الثغور تختلف من نبات إلى نبات بحسب بيئته. لذلك يقل عدد ثغور النباتات الصحراوية عن عدد الثغور في نباتات الحقل، مما يقلل النتح في الأولى عن الثانية.

4- إن الطير أخف من أي حيوان في حجمه، وقد اتضح نتيجة تشريحه أن عظام الطير رقيقة مجوفة؛ لتعمل على خفة جسمه وتجعله بذلك قادراً على الطيران.

5- في القارة الجنوبية المتجمدة نوع من الطيور يسمى البانجو تضع الأنثى بيضها في أشهر الشتاء المظلمة - حيث تتبدل التلوّج في الأرض والسماء - في جيب جلدي في الطرف الأعلى من رجليها، ويبقى الصغار في ذلك الجيب إلى أن يقووا ويشتّد مراسهم.

6- إن للسمك خطأ طوليا على كل جانب من جانبيه، وبفحص هذه الخطوط بالمجهر، وجدت أنها أعضاء دقيقة حساسة إلى درجة كبيرة، فإذا اقتربت السمكة من حاجز أو صخرة تحس هذه الأعضاء باختلاف ضغط الماء نتيجة اصطدامه بالحاجز مهما كان تماوج الماء قليلا، فتنفادي بذلك الاصطدام وتغير طريقها.

7- يطير الخفافيش في الليل حيث لا ضوء على ضعف بصره، ولا يصطدم الخفافيش بالحواجز مهما كثرت، وقد تبين أن الخفافيش يرسل اهتزازات ترجع إليه بالتصادم مع أي جسم يقابلها، فيحس به دون أن يراه، إنه في هذا شبيه بالرادرار.

هذه أمثلة تعطينا صورة مبسطة عن الحكمة المبثوثة في كل شيء، وأن الإنسان كلما ازداد علما ازداد إدراكا لظاهرة الحكمة كما قلنا من قبل، ولكن القلوب العمي، والأذان الصم، والعقول المعطلة، تبقى عاجزة فلا تعي عن الله آية: "وَكَائِنٌ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف : 105 "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْنَابِ السَّعِيرِ"

الملك : 10

ترى لو نسب إنسان إلى مجنون، أصم، أعمى، أخرس، صناعة الرادار إلا يشك في عقله؟ بل يجزم بجنونه، أو ليس ينسب اهتزازات الخفافيش إلى المادة الصماء، العميماء البكماء، الميتة، أكثر جنونا. "إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شَيْئُتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" فصلت : 40

إن في هذا الكون مليارات من شواهد الحكمة في الذرة والخلية، وفي اجتماع الذرات والخلايا، وفي كل نوع من أنواع الخلق وفي كل جزء منه، وفي اجتماع هذا كله، وكل شاهد من هذه المليارات لو نسبه إنسان إلى العدم لكان مجنونا، فكم هؤلاء مجانين أولئك الذين لا يؤمنون بالله الحكيم وكم هم سفهاء إذ يتهمون المؤمنين بخالق الحكمة أنهم مجانين؟ قال تعالى: "وَالْقَلْمَ وَمَا

يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *
فَسَتَبْصِرُ وَيَبْصِرُونَ * بِأَيْمَكُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ" القام : 8-1

الظاهر الثامنة

ظاهرة العناية

1- كل نعمة وراءها منعم، وصف دواء لمريض نعمة وراءها طبيب، تأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم، رعاية الطفل حتى يكبر ويستغني نعمة وراءها أب وأم، وجود بيت فيه كل وسائل الراحة نعمة وراءها ناس عملوا، وهكذا نجد أن المعطيات المصطنعة للإنسان كلها وراءها مباشرة من أعطى واعتنى. أترى هذه المعطيات الكثيرة التي ليست من صنع الإنسان للإنسان، أليس وراءها يد؟ إن مثل الكلام تعطيل للعقل أي تعطيل. ولما كانت هذه الظاهرة ظاهرة العناية والنعمه على الإنسان، من أكثر الظواهر تفصيلا في القرآن لما يترب عليها من إظهار فضل الله وكرمه ورحمته وعطائه، وبالتالي يستخرج بها شكر العاقل لله العظيم، أو إقامة الحجة على الإنسان وكفره وظلمه وجحوده، وبالتالي استحقاقه كل عقاب؛ فذلك نبقي في جو شرح القرآن لظاهرة النعمة على الإنسان، والعناية به وكون ذلك دليلا على الله.

2- يقول الله تعالى: "وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" النحل : 18 "وَإِن تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" إبراهيم : 34 والملاحظ أن آية من الآيتين ختمت بأن الله لغفور رحيم بينما الأخرى ختمت بوصف الإنسان إن الإنسان لظلمات جهول فوضي من سياق الآيتين وختامهما معا:

1- إن هذه النعم التي لا تعد ليست مصادفة بل هي من خلق الله، وعفو الله ورحمته هما اللذان يسعان الإنسان المؤمن، إذا لم يقم الله بحق المعرفة أو بواجب الشكر قياما كاملا.

2- إن جهل الإنسان الذي ينتج عنه الكفر، وكبره الذي ينتج عنه الظلم، هو الذي يجعل الإنسان لا يرى بداعه نعم الله، ويجعله لا ينسبها إلى الله بإخلاص وتجرد، بل ينسبها إلى أي شيء، مهما كان تافها وباطلا: "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَرَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِّهُونَ" الزمر : 45

3- وقد أجمل الله ماهية عنايته بالإنسان ونعمه عليه في آيات منها: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جمِيعاً". **"لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"** لقمان : 20 **"وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ"** الجاثية: 13 وفي هذا الإجمال السريع يتبيّن:

1- أول مظاهر من مظاهر نعمة الله على الإنسان، خلقته على ما هو عليه من معان ظاهرة وباطنة.

2- ثاني هذه المظاهر أن الأرض بما فيها والسماء بما فيها مسخرة للإنسان.

3- إن هذا الإنعام كله بجزئيه على الإنسان من الله عز وجل قال تعالى **"وَأَسْبَغَ"** وقال: "جَمِيعًا مِنْهُ" ولا يمكن أن يكون إلا ذاك؛ لأن مناسبة الكون للإنسان وإمكانه تسخيره، لا يمكن أن يكون إلا بمسخر.

4- وبعد هذا الإجمال، نذكر بعض تفاصيل هذين المظهرين من مظاهر نعمة الله على الإنسان في القرآن:

1- **"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"** الإسراء : 70 **"الرَّحْمَنُ"** عَلَمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَمَ الْبَيَانَ الرحمن :

1-4 **"لَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"** التين : 7 ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم **"فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ"** رواه البخاري (6227) ومسلم (2841)

أي على صفاته على رأي بعضهم، فالله له إرادة وللإنسان إرادة، والله له علم وللإنسان صفة علم، والله هي وللإنسان صفة حياة، والله سميح وللإنسان صفة سمع، والله بصير وللإنسان صفة بصر، والله متكلم وللإنسان صفة كلام، والله حليم وللإنسان صفة حلم، والله رحيم للإنسان صفة رحمة و مع ملاحظة أن الله ليس كمثله شيء؛ وجودا وصفات وأسماء وأفعالا. فلم ينعد على مخلوق من المخلوقات كما أنعم على الإنسان من حيث ما أعطى من معطيات خلقية ظاهرة وباطنة: **"وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"** لقمان : 20 وكفى بالعقل للإنسان نعمة، وبسبب ما أعطى استطاع أن يسخر هذا الكون بما فيه.

2- ويعدد الله عز وجل نعمه الكونية على الإنسان، وما أكثر الآيات في ذلك ويكفي أن نعرف أن سورة طويلة هي سورة الأنعام كلها تقريباً تتحدث عن هذا الموضوع، وكذلك سورة النحل، ولنذكر نماذج مختارة من القرآن الكريم: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّنَينَ وَالْحِسَابَ" يومنا : 5

"وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" الأنعام : 97 إن الطريق الوحيد للإنسان كي يتعرف على الطريق الصحيح في ظلمات البر والبحر هو النجم، وقد كانت المسألة قد فيما أوضح منها الآن لكثرة ما كان يستفيد الإنسان من الاهتداء بالنجم، ولكن في الحاضر وإلى الأبد سيبقى الاهتداء بالنجم شيئاً أساسياً. يهتمي بها قاطع الصحراe في سيره، والجندي في معركته هجوماً أو انسحاباً والإنسان حيث كان، إن السفينة في البحر إذ تسلك طريقها معتمدة على البوصلة وعلى خطوط الطول والعرض هي - حتى في هذه - معتمدة على النجم؛ إذ لو لا نجم القطب ما عرف طولاً ولا عرضاً، ولو لا النجوم الأخرى ما عرف نجم القطب. وبدون نجوم كم يتعدب الإنسان وكم يضل، وكم تشن حركته، وكم تتقلص دائرة عمله!!

"وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيٌّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُّلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ" النحل : 15-16

"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" إبراهيم : 32-34

"أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقَاهُمَا وَجَعَلَنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٌّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلَنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيٌّ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلَنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُّلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ *

وَجَعَلَنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِحُونَ" الأنبياء : 30-33

"خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيِّ إِلَّا بِشَقٍّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ *

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكُبُوهَا وَرَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَا كُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسَيِّمُونَ * يُبَيِّنُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ النَّثَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا نَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَفِي الْوَانِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلُكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلَنَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ * وَالْأَقْيَ في الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهَذَّبُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهَذَّبُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" النحل : 18-3

"أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَقَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ"

النحل : 48

"وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيْكُمْ مَمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِبَنًا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرَزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَيْكُمْ أَنِ اتَّخِذُوا مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ النَّثَرَاتِ فَاسْكُنُكُمْ سُبُلَ رَبِّكُمْ ذُلْلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ الْوَانِهِ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" النحل : 65-69

"وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَرْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ" النحل : 72

"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئَةَ لِعَلْكُمْ تَشَكُّرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوَ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ طَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ

مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيمُ بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُتْمِنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنَكِّرُونَهَا وَأَكْثُرُهُمُ الْكَافِرُونَ" النحل : 78-83

"الَّمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِيرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَفَافًا" النبا : 6-16

"فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًًا وَعِنْبًا وَقَضْبًا * وَزَيَّتُونًا وَنَخْلًا * وَهَادِئَةً وَأَبَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ" عبس : 24-

32

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هُلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّمَا تُؤْفَكُونَ" فاطر : 3

"وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتَشِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلْدٍ مَيْتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ" فاطر : 9

"الَّمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا الْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُدٌ بِيَضْنٍ وَحُمُرٌ مُخْتَلِفُ الْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفُ الْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" فاطر : 27-28

"وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيَّتُونَ وَالرُّمَّانَ مُنْشَابِهَا وَغَيْرَ مُنْشَابِهِ كُلُّوَا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَنْتَمْ رَأْتُمْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُّوَا مِمَّا رَزَقْنَاكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَبَعُوا أَخْطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّانِ اثْتَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْتَيْنِ قُلْ الْذَّكَرَيْنِ حَرَمٌ أَمِ الْأُنْثَيْنِ

أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَيْنِ نَبَوْنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبْلِ اثْتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْتَيْنِ "الأنعام : 141-144

"إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبَّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَعْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" الأنعام : 95-96.

"وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقِرٌ وَمُسْتَوْدِعٌ قَدْ فَصَّلَنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ" الأنعام : 98
ونختم هذه الآيات بما ختمت به سورة الأنعام: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَافَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبَلُوْكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" الأنعام : 165

وفي هذه الآية ترى إجمالاً لنعم الله كلها:

1- كون الإنسان خليفة على هذه الأرض، وفي هذه إشارة لنوعية النعم: نعمة الله على الإنسان في إعطائه الخصائص الظاهرة والباطنة التي استأهل بها تسخير الوجود، ونعمة الله على الإنسان إذ جعل الأرض بما فيها له.

2- كون الناس ليسوا سواسة؛ بل رفع بعضهم فوق بعض درجات من أكبر النعم. وقد يشكل على بعض الناس كيف يكون جعل الناس بعضهم فوق بعض نعمة، وهذا من قصور الفهم؛ وذلك لأن الحياة الدنيا لا تقوم إلا على هذا، فلو كان الناس كلهم متساوين جمالاً وذكاء وقوه وعقلاً وعلماً وإمكانات، وكانوا كلهم في الدرجة العليا من ذلك فإن وقتذاك لا يوجد كناس ينظر أرضاً، ولا عامل يقيم عملاً، لكن وجودهم متفاوتين جعل كلاً مسخراً في حدود طاقاته، إلى جزء من العمل الذي تقوم به الحياة الدنيا ومصالح الخلق وبهذا التفاوت صلاح ناس للإمرة وناس للشورى وناس للجيش، وهكذا.

ثم بينت الآية الحكمة في وجود هذا التفاوت بين المستخلفين؛ وهو الابتلاء فيما أوتي كل إنسان من مقام وموهاب وإمكانات، فمن استعمل هذه في طريقها الصحيح نجح وإن فقد سقط، وقد يسقط إنسان أوتي من المكانة أعلىها، وينجح إنسان أوتي المكانة أدنائها، ومن هنا ندرك أن أكبر

نعمة أنعمها الله على الإنسان إرسال الرسل: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" الأنبياء : 107
اللَّهُمَّ مَنْ أَنْتَ بِهِ أَعْلَمُ فَإِذَا أَنْتَ بِهِ أَعْلَمُ
اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" آل عمران : 164

إن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الذين يدلون كل إنسان على الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يستعمل فيه ملائكته كلها، بحيث لا يغفل شيئاً منها، وب بحيث لا يصطدم مع الآخرين الذين يحسنون استعمال الملائكة، وبالتالي تتم نعمة الله على الإنسان بالاستفادة من كل ما سخر له، ولو لا هذا لتضاربت محاولات الناس الاستفادة مما سخر الله لهم واصطدموا، وأصبح هذا الفضل على الإنسان بتسخير كل شيء له سبباً في شقاء الإنسان كما هو واقع الآن.

من كل ما تقدم نخرج بما يلي:

هذا الإنسان هو أكمل مخلوقات هذا الكون، ودراسة كاملة لهذا الكون، تدلنا على أنه سماواته، وأرضه، وحيواناته، ونباتاته، كله مسخر للإنسان لا يشذ عن كل هذا ذرة من ذراته: فالنباتات قديمها وحديثها يستفيد منها الإنسان مباشرة أو بطريق غير مباشر ثمرة لغذائه، وساقها لسياراته وشقته وناره، وزهرها للنحل الذي يأكل منه الإنسان العسل وقد تكون غذاء للشاة التي يأكل لحمها، ويشرب لبنها ويستعمل صوفها لثيابه، ويستخرج منها الدواء ويصنع منها الأدوات، ولا ننسى أن البترول كان من الأشجار على رأي بعضهم.

وهذه الأحياء ما علمنا منها وما لم نعلم؛ أليست كلها للإنسان يستفيد منها بطريق مباشر وغير مباشر: درا وطعاماً، ومتعة ونظراً وقد نرى أصنافاً من الأحياء لا نعرف الآن ماذا يستفيد منها الإنسان وكيف يستفيد وقد يعرف في المستقبل، ولعل في هذه القصة عبرة: (هناك نوع من الصبار يستعمل كسياج للمزارع، نقل إلى أستراليا ووزع هناك وكانت فاجعة إذ امتد بشكل هائل لدرجة أنه كاد يغطي كثيراً من الأراضي الصالحة للزراعة وحار العلماء في هذا الأمر، ثم عثروا على نوع من الجراثيم المرضية لا تعيش إلا على هذا النوع من النبات، فنقلوا هذه الجراثيم بواسطة النبات نفسه، وبدأت الجراثيم تعمل عملها حتى تقلص النبات إلى الوضع المناسب، والملاحظ أن الجرثوم لم يقض على النبات بل بقي النبات ولكن بالقدر الذي ينفع ولا يضر) ولعل في قصة اكتشاف البنسلين وفي وجوده عبرة أخرى ، على أن كل شيء في هذا الكون يستفيد الإنسان منه بشكل أو باخر الآن أو غداً، وعلى كل فإن الإنسان كما يتمتع

باللّقمة التي يأكلها والثوب الذي يلبسه يتمتع بالمنظر الجميل، وكما يتمتع بالمنظر الجميل، يتمتع بلذة المعرفة، ولئن لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها تدل على حكمة الله ورحمته وسعة عنايته بمخلوقاته، إيجاداً وإمداداً، إحياء وإماتة ورزقاً لكفى.

ثم أليست عناصر هذا الكون: حديده ونحاسه، وأوكسجينه، وأزوتـه، وهيدروجينـه، وذهبـه، كلـها مسخـرة للإنسـان؟! ثم الأرض بساطـه ومائـاه ومحلـ معاشه وقرارـه؟! وفي القـمر للإنسـان جـذـبه ونورـه وجـمالـه ومعرفـتنا الـوقـتـ بـهـ؟! وفي الشـمـس للإنسـان جـذـبـها وحرـارتـها ونورـها وطـاقـتها التي نـبـتهاـ؟! وفي النـجـوم الـهـادـيـةـ الجـمـيلـةـ؟! والمـيـاه دـورـتهاـ؟! ثم كـونـ هذاـ الإنسـانـ عـلـىـ ماـ هوـ عـلـيـهـ منـ عـلـمـ وإـرـادـةـ وـقـدـرـةـ وـحـكـمـةـ وـعـقـلـ بـحـيـثـ عـرـفـ الـكـثـيرـ منـ الـأـشـيـاءـ، وـكـيفـ يـسـقـيـدـ منـهـ، أـلـيـسـ فـيـ هـذـاـ دـلـيـلـ كـامـلـ عـلـىـ أـنـ هـذـاـ كـوـنـ خـلـقـ مـسـخـراـ لـلـإـنـسـانـ، وـأـنـ إـلـهـانـ خـلـقـ مـسـخـراـ لـهـذـاـ كـوـنـ؟! أـوـ لـيـسـ فـيـ هـذـاـ دـلـيـلـ الـكـامـلـ عـلـىـ أـنـ هـذـاـ ذـاتـاـ رـتـبـتـ هـذـاـ لـلـإـنـسـانـ وـأـوجـدـتـ

الـإـنـسـانـ لـهـ؟! ذـلـكـ اللهـ ربـ الـعـالـمـينـ.

قال تعالى: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لِأَرِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" * وقال موسى إن تكـفـرـوـ أـنـتـمـ وـمـنـ فـيـ الـأـرـضـ جـمـيعـاـ فـإـنـ اللـهـ لـغـنـيـ حـمـيدـ" إـبرـاهـيمـ : 7-8
"وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ" سـبـأـ : 13

الظاهرة التاسعة

ظاهرة الوحدة

إن الدارس لهذا الكون ، يرى أن فيه وحدة، تدل دلالة كاملة على أن ذاتاً واحدة بعلم واحد وإرادة واحدة وقدرة واحدة قد أوجده، ومظاهر هذه الوحدة كثيرة منها:

1- التكامل في أجزاء هذا الوجود الذي يدلنا بدقة على أن خالقاً واحداً قد رتب أجزاءه هذا الترتيب الدقيق المتكامل، يقول الأستاذ البنا رحمة الله:

الملاحظة الأولى: هذا الهواء الذي نستنشقه مركب من عدة عناصر منها جزءان هامان: جزء صالح لتنفس الإنسان ويسمى باصطلاح الكيميائيين الأوكسجين وجاء ضار به ويسمى الكربون، فمن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الوجود المعجز أن هذا الجزء الضار بالإنسان يتنفسه النبات وهو نافع له، وفي الوقت الذي يكون الإنسان فيه يستنشق الأوكسجين ويطرد الكربون، يكون النبات يعمل عكس هذه العملية فيستنشق الكربون ويطرد الأوكسجين.

وتحت عملية إيجاد التوازن بين الصادر والوارد من غاز الفحم (البحر) ، فإنه يمتص كل زيادة موجودة في الجو إذا بلغت هذه الزيادة فوق الحد المناسب.

فانظر إلى الرابطة التعاونية التكاملية بين الإنسان والنبات والبحر في شيء هو أهم عناصر الحياة وهو التنفس.

الملاحظة الثانية: أنت تأكل الطعام وهو يتربّك من عدة عناصر نباتية أو حيوانية، يقسمها العلماء إلى مواد زلالية ونشوية ودهنية مثلاً، فترى أن الرريق يهضم بعض المواد النشوية ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل الذوبان، والمعدة يهضم عصيرها المواد الزلالية كاللحم وغيره، والصفراء المفرزة من الكبد تهضم الدهنيات وتجزئها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها، ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك، فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تتميم الهضم في عنصر من العناصر الثلاثة النشوية أو الزلالية أو الدهنية، والرابعة تحول اللبن إلى جبن، فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البشري وعناصر النبات والحيوان والأغذية التي يتغذى بها الإنسان.

الملاحظة الثالثة: ترى الزهرة في النبات، فترى لها أوراقاً جميلة جذابة، ملونة بألوان مبهجة فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك أجابوك بأن هذا إغواء للنحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار، لتسقط على الزهرة حتى إذا وقفت على عيدها عاقت حبوب اللقاح بأرجلها، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتلقيح، فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان؛ حتى يستخدم النبات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج.

هذا التكامل تجده في كل شيء بين الليل والنهار، السماء والأرض، الشمس والقمر، الأعضاء المذكورة والأعضاء المؤمنة والإنسان والحيوان والنبات.

إن في هذا الكون وحدة مظاهرها تكامل أجزائه تدل على أن لها خالقاً وأنه واحد. أما لم دلنا هذا على الوحدانية؟ يجيب على هذا الأستاذ البناء فيقول: (إن التعدد مدعاة الفساد والخلاف والعلو ولا سيما شأن الألوهية الكبرياء والعظمة، وأيضاً فلو استقل أحد المتعددين بالتصرف تعطلت صفات الآخرين، ولو اشتركوا تعطلت بعض صفات كل منهم، وتعطيل صفات الألوهية يتناقض مع جلالها وعظمتها فلا بد أن يكون الإله واحداً لا رب غيره) وقد ذكر القرآن دليلاً على التكامل ودلالة على الخالق ووحدانيته في أكثر من سورة:

قال تعالى: **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْنَطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ *** أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيِ رَحْمَتِهِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ النمل : 59-64.

أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنَشِّرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعُلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآئِلَّةٌ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ" الأنبياء : 21-25.

"قُلْ لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبَعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَكْوَتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَإِنِّي تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" المؤمنون : 84-92.

"قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَتَغَوَّلُونَ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا" الإسراء : 42-43.

2- ومن مظاهر هذه الوحدة في الكون، ذلك التناقض والترتيب الذي ذكره الله في القرآن بقوله تعالى: "مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَابِ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِيًّا وَهُوَ حَسِيرٌ" الملك : 3-4

وهذه أمثلة من هذا الكون تدلّك على هذه الوحدة الشاملة المتناسقة فيه:

1- إن الإلكترون يدور على عقارب الساعة، والأرض تدول على عقارب الساعة، والشمس تدور على عقارب الساعة، والقمر وكل الأقمار تدور على عقارب الساعة، والنجوم كلها تدور على عقارب الساعة، و مجرتنا التي تضم بين أجزائها مجموعتنا الشمسية تدور على عقارب الساعة، والإلكترون يدور على مدار بيضاوي إهليجي والأرض تدور حول الشمس على مدار بيضاوي إهليجي، وكذلك الزهرة ونبتون والمشتري والكواكب السيارة، ومحور الأرض مائل. ومحور القمر مائل، ومحور المريخ مائل. ومحور الشمس مائل. والعجيب أن النسبة بين النوات والإلكتروناتها كالنسبة بين الشمس وكواكبها السيارة.

2- إن ذرات الوجود كلها تقوم على الزوجية، كهرباء سالبة وكهرباء موجبة، فإذا ارتفينا إلى النبات وجدنا عنصر الزوجية، فإلى الحيوان كذلك، فإلى الإنسان كذلك وحتى في الأحياء المخنثة توجد أعضاء ذكورية وأخرى أنثوية قال تعالى: "سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُبْتَطِّلُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ" يس : 36 وفي الأرض نفس العناصر التي تؤلف الشمس، ونفس العناصر التي تؤلف كل الكواكب، والكون بكل عناصره مؤلف من بروتونات وإلكترونات كعناصر أساسية، وهناك نيترونات كشحنة كهربائية معتدلة تكون في نواة معظم العناصر.

3- في هذا الكون قوة ومنابع قدرة، وتحكمه قوانين، وإنك لتجد أدق معاني التناسق والوحدة بين هذه القوى والقوانين، كمثال: من منابع القوة والقدرة في هذا الكون: الضوء والحرارة والأشعة السينية، والأشعة اللاسلكية، والأشعة البنفسجية، تحت الحمراء، هذه القوى كلها ترجع إلى شيء واحد هو تلك القوة الكهربائية المغناطيسية ولها جميعاً سرعة واحدة وإنما اختلافها اختلاف موجة. ومن قوانين هذا الكون، قانون الجاذبية الذي يحكم الوجود كله من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه، والذي نصه: كل شيء له كتلة يجذب كل شيء آخر له كتلة، وقوة التجاذب التي بينهما تزداد ازدياداً طردياً بزيادة أي الكتلتين، فالقوة تتناسب تتناسب عكسياً مع مربع البعد بينهما. والآن عرفنا أن هناك قوتين أو نوعين من القوى؛ القوة المغناطيسية الكهربائية وقوى الجاذبية وكلها ترجع إلى أصل واحد.

يقول أينشتاين: (إن روح العالم النظري لا تحتمل أن يكون في الوجود شكلان لقوى لا يلتقيان شكل للجاذبية القياسية، وشكل للمغناطيسية الكهربائية)

4- وهاتان قستان تدلان على التنساق أولاً، وفي التشابه بينهما دليل على الوحدة الكونية:
الأولى: إن لاختلاف العناصر الأصلية في هذا الكون، أثر عند اختلاف عدد الإلكتروناتها وبروتوناتها ، والوزن الذري أثر من آثار هذا العدد ، وخصوص كل عنصر أثر من آثار هذا العدد، وقد استطاع العالم الروسي مندليف أن يصنف العناصر بحسب وزنها الذري ووضع لها جدولًا على هذا الأساس وكان ترتيب العناصر متدرجًا صاعداً، ولكن مندليف فوجئ بفراغ كالفراغ الذي سُنكره بين المريخ والمشتري.

إذ أنه وجد أن درجات السلم الدوري للعناصر تطرد بتتابع لا فراغ فيه، إلا في ثلاثة عناصر، فإما أن يكون هذا القانون الدوري غير مطرد وغير صحيح، وإما أن يكون صحيحاً ومطرداً، فلا بد حينئذ من وجود هذه العناصر المفقودة في نفس تلك الدرجات الفارغة، وكان مندليف واثقاً من صحة قانونه الدوري، فأخذ يؤكد أن هذه العناصر الثلاثة المفقودة لا بد من وجودها على الأرض، بل إنه استطاع على أساس وزنها الذي يأتي في الدرجات الفارغة أن يحدد كل الخواص الكيميائية التي لها كأنه يراها، وقد رأى مندليف قبل موته صحة نظريته العلمية، واكتشف العلماء العناصر المفقودة بكل خصائصها كما حددها مندليف.

الثانية: أقرب الكواكب إلى الشمس عطارد وبعد 36 مليون ميل، فالزهرة ومتوسط بعدها 67 مليوناً، فالأرض 93 مليوناً، فالمريخ 142، فالمشتري 484 مليوناً فزحل 887 مليوناً فأورانوس 1782 مليوناً، فنبتون 2792 مليوناً من الأميال، وبهمنا أن نعرف النسبة في هذه الأعداد. إن أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق 9 منازل: أولها الصفر، ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد 3، ثم تتدرج متضاعفة هكذا 2-6-12-24-48-96-192-384 فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد 4 ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل، ظهر مقدار بعد السيارة التي في منزلة العدد عن الشمس؛ أي أنه بالإضافة 4 إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا: 4-7-10-16-28-52-100-196-388 فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه، وضربنا كل عدد منه بتسعة ملايين، يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك البعد عن الشمس؛ فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بعده عن الشمس 36 مليون ميل، وبما أن منزلته في البعد هي الأولى فيكون رقمه 4، فإذا ضربنا 9×4 يكون حاصل الضرب 36 مليون ميل، وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيار عن الشمس مع فروق مخالفة قليلة.

ولكنهم وجدوا أن منزلة العدد (28) ليس فيها كوكب، بل تأتي بعد العدد 16 الذي صاحبه المريخ، العدد 52 الذي صاحبه المشتري، مما هو السر في هذا الفراغ؟ إما أن تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة، وإما أن يكون هناك كوكب غير منظور في مرتبة العدد 28 على بعد 252 مليون ميل عن الشمس، أي بين المريخ والمشتري وأخيراً وجدوا هذا الشيء الذي لا بد من وجوده، ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيراً؛ بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في

الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري، أي في نفس المنزلة التي حسيوها من قبل فارغة، فكأنه كوكب تحطم.

هاتان قستان متشابهتان في قضيتين مختلفتين، كل واحدة منها تتم الأخرى لتكملًا عندي الشعور؛ بأن يدا واحدة قد خلقت قوانين هذا الوجود وعناصر وجزئياته وكلياته.

للنجوم قصة:

(فقد عرف الإنسان شيئاً من موقع النجوم، وعرف أن لها أقداراً ثابتة بحسب نورها وعددتها. عدوا منها في الماضي البعيد ستة أقدار ووقفوا، ثم ما زالوا يكتشفون الجديد حتى وصلوا إلى القدر العشرين، ثم إلى القدر الحادي والعشرين، والعجيب في هذه الأقدار أنها تسير متزقية أو متذبذبة - بحسب عدد النجوم تارة، وبحسب قوة نورها أخرى - في نسب مدهشة تطرد في عدد النجوم، فتزداد تباعاً من قدر إلى قدر، فيكون عدد نجوم القدر الأول 14 نجماً، ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ في القدر العشرين 76 مليون نجم، ويبلغ في القدر الحادي والعشرين ملياري نجم، أما في قوة النور فقد شوهد أن تلك الأقدار تزداد باطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر، فكلما زاد عدد النجوم في القدر زادت قوة النور، وأما بعد العاشر فتتعكس الآية وتأخذ قوة النور في التضاؤل).

ومن مظاهر هذه الوحدة في هذا الكون اتصال أفق النبات بأفق الحيوان، واتصال أفق الحيوان بأفق الإنسان، فترى في عالم النبات تدرجًا من أدنى إلى أعلى مع التشابه، وتتجدد أعلى آفاق النبات متصلة بأدنى آفاق الحيوان، وأعلى آفاق الحيوان متصلة _ نوع اتصال _ بأفق الإنسان، حتى حسب الحاسوب أن هناك بذرة أولى كان منها تطور وارتقاء حتى أصبحت الأحياء على ما هي عليه. وقد نقاشنا هذه النظرية وبيننا بطلانها في ظاهرة الحياة، ولكن القول بها دليل على ما بيناه من أن في أحياء هذا الكون وترقياتها وحدة تدل على وحدة الصانع الذي خلقها أجنساً وأنواعاً، وجعل بعضها أرقى من بعض: *وَمَا مِنْ دَآبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا هُمْ أَمْثَالُكُمْ*" الأنعام : 38

ومن مظاهر الوحدة في هذا الكون أن المادة كلها من نور، إذ أن عناصر المادة كلها تؤول إلى ذرات وكهارب، وأن هذه الذرات والكهارب تتشق فتؤول إلى شعاع.

ومن مظاهر الوحدة أنك تجد أن أجنة الحيوان والإنسان في الشهور الأولى من الحمل متشابهة تشابها تماما، فإذا بهذا التشابه يخرج منه ذلك الخلق مختلف.

وهذه المظاهر كلها تدل على التسقّي والترتيب، فإذا أضفنا إليها ظاهرة التكامل، عرفنا جزماً أن ذاتاً واحدة، بعلم واحد، بإرادة واحدة، بقدرة واحدة، هي صانعة هذا كله.

أما لم نسبنا هذا الوجود والوحدة فيه إلى خالق؟ ولم حكمنا أن هذا الخالق واحد؟ وما الرد على عباد الطبيعة؟ فهذا ما سيأتيك الجواب عنه في الفصول الثلاثة التالية بالتفصيل:

- 1- السببية
- 2- الطبيعة
- 3- التوحيد

وهذه الفصول الثلاثة منقوله من كتاب الوجود الحق للدكتور حسن هويدى.

وإنما وقنا عند هذه الموضوعات الثلاثة هذه الوقفة، لأن أعظم صراعات الإسلام المعاصرة، صراعه مع الماديين الذين ينكرون قانون السببية في حق الكون، ويعملون لحوادث الكون بأنها فعل الطبيعة، والصراع الضخم الآخر صراع الإسلام مع القائلين بالتعدد كالنصارى القائلين بالثلثية والمجوس القائلين بالشتوية والمشركين عموما، وللتأكيد على السببية وعلى دحض فكرة الطبيعة وعلى تعميق التوحيد نذكر فصلا رابعا نجعله تحت عنوان عود على بدء للشيخ سعيد النورسي.

1- السببية

منذ امتياز هذا الإنسان بالإدراك وإشراق أشعة عقله على الوجود، تسأله ولا يزال عن مبدئه ومنتهاه، فهو يتتسأله من أين أتى وإلى أين يصير؟ وهو إذ ينصرف فكره إلى أن وروده المباشر إلى هذا العالم؛ إنما كان من رحم أمه، أو من نطفة أبيه، لا يقتصر بهذه النظرة السطحية القريبة، دون النظر إلى المبدأ الأول، والبحث عن السبب الأساسي الذي ترجع إليه جميع الأسباب.

ولهذا الدافع العميق الممترض بالنفس البشرية، والذي ولد معها، وما زال يلازمها، كان الجواب على هذا السؤال شغل المحققين الشاغل؛ فنشأت أحكام مختلفة، ونظريات متباعدة وكان منهم مخطئ ومصيّب. غير أننا إذا نظرنا إلى ما بين أيدينا من السماء والأرض؛ نرى أن المطر ينهر من سحاب، وأن الثمر يحصل من شجر، وأن الشجر ينبع من الماء والتراب، وأن الماء ينشأ من عنصر الأوكسجين والهيدروجين ولم يشاهد الإنسان منذ فتح عينيه على الوجود أن حدثاً حدث من غير سبب، أو أن شيئاً وجد من غير موجود، حتى أضحى هذا المعنى بحكم الواقع القاهر لا يتصور العقل خلافه ولا يطمئن إلى غيره، ولا يأبه الإقرار به إلا عقل مريض شأن المعتوهين، أو عقل قاصر شأن الطفل الذي يكسر الإناء ثم يقول: إنه انكسر بنفسه؛ ولذلك وجدنا ذلك العربي قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية فنادي نداء المشهور: البعثة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على الصانع الخبير.

لهذا الواقع الصريح ، والإدراك القاهر ، وجريان الحوادث أبداً على هذا القانون أضحى هذا المبدأ مسلماً به في كتب الفلسفة، وسمي بمبدأ السببية وهو أول مبادئ العقل المديرة للمعرفة، لأنه أساس الأحكام العقلية والمحاكمات المنطقية، ولو التفت إلى كلماتك التي تخاطب بها الناس صباح مساء، والأحكام التي تنظم بها شؤون حياتك، لوجتها لا تخلو في أي مرحلة من المراحل من الاستناد إلى مبدأ السببية.

إذا، فقولنا: لا بد لكل حادث من محدث أمر يقيني مسلم به ولا يقبل العقل غيره، وبالتالي محال على حادث أن يحدث بذاته، وعلى شيء أن يوجد بغير موجود، وإليه الإشارة في القرآن الكريم "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ" الطور : 35

نقول بناء على هذه القاعدة: إن عالمنا هذا من أرض وجبار، وشجر ودواء وكواكب وشموس، لا بد له من محدث، وإن هذه الحوادث الفرعية الكثيرة، مندفعة عن أسباب، وهذه الأسباب مندفعة عنه أسباب أخرى أقل من الأولى، ولا بد أن نصل بالنتيجة إلى سبب لجميع هذه المسببات، ومحدث لجميع هذه الحادثات، لأننا كلما رجعنا إلى الأصل الذي اندفعت عنه المسببات، قلت العوامل الدافعة، حتى نصل أخيراً إلى مسبب واحد. كنظرك إلى أغصان

الشجرة المتعددة المتشابكة، فكلما ذهبت تبحث عن أسبابها، ذهبت إلى قليل من كثير، حتى تنتهي إلى ساق واحدة، وإنك تجد لهذه أمثلة كثيرة، هي من الظهور بمكان لا تحتاج معه إلى الوقوف الطويل وضرب الأمثال.

إذا، فإنكار محدث للحوادث، وموجد للوجود، تناقض مع العقل، وإقامة على الخطأ، ولعله لهذا الإلزام المنطقي الذي لا مناص منه، سماه ابن سينا بالواجب الوجود، حفاظا على حرمة العقل من أن يوصم بالتخليط والتناقض، أو البلاهة والتبلد إذ يستحيل أن ينبعق الوجود من العدم. هذا وإن قدم المبدأ، أو قول كثيرين به، أو ظهوره بمظاهر البديهية لا يقضي عليه ولا يخرجه من الحق إلى الباطل، ما دام العقل يميليه، والواقع يؤيده، إلا إذا كان الداعي إلى الإنكار، استكبارا على كل قديم، أو عقوقا للمنطق السليم، أو جريأا مع كل هوى سقيم، شأن الحمقى والمرضى والمغرورين.

وقد يقول قائل: إن هذا المحدث لجميع الحوادث هو الطبيعة، وسيأتي الكلام على الطبيعة، أو يقول: إذا أقررنا بوجود الخالق، فمن الذي أوجد الخالق؟ وسيأتي تفصيل ذلك. والذي نريد أن نخلص إليه الآن واضحًا مجزوما به: لا بد لكل حادث من محدث، إذن فلا بد لهذا العالم من خالق.

هنا قد يثير بعض النقاد قضية قدم العالم وحدوثه، فيقول: إن هذه القاعدة تستقيم إذا سلمنا بحدوث العالم ولم نقل بقدمه.

ونقول: إن البرهان ملزم بالقول بحدوث العالم ونفي قدمه، فقد قال الإمام الغزالى بناء على ملاحظة الحركة والسكون: إن دورة من الفلك: إما أن تكون شفعاً أو وترًا فإن كانت شفعاً فقد أتمت عدداً فردياً، وإن كانت وترًا فقد أتمت عدداً زوجياً، إذن فالعدد السابق على كلا الحالين محدود، ولما كان محدوداً فهو حادث قطعاً ولو استمر الناقد فقال: إن أصل العالم (هيولاه) قديم، والحركة طارئة، قلنا له: من أين طرأت الحركة به، فهو إذن إقرار منه صريح بوجود مرجع آخر أثر على العالم بإيجاد الحركة، بل هو استعجال فاصل للإقرار بوجود خالق للعالم، فالناقد بين أمرتين: إما أن يرجع إلى قولنا بحدوث فيعترض بالخلاف، أو أن يقر بوجود المرجع وهو اعتراف بالخالق، إذن، فقد الناقد واه لم يصل إلى القرارة ولم يثبت للنقد، والقول بقدم العالم

باطل لا يسنه برهان، وهكذا تنهار المادية الجدلية التي تقول بقدم العالم، هربا من الإقرار بوجود خالق للعالم، وتفلت من البرهان الملزم، والدليل القطعي.

وقد تستغرب قولي بانهيارها بهذه السرعة، ولكنني أقول: إن عقدا من النظام لو بلغ ألف حبة، لانفطر كله بحل العقدة الأولى. وإن لم ترد ذلك، فاحذف من المادية الجدلية كل ما بني على أساس قدم العالم من الأحكام، فأول حكم تهدمه من أحكامها الأساسية إلحادها في الخالق، وعند القول بخالق الوجود؛ تتلاشى أحكام أخرى تهم حكم الفرعية كما سترى، دون أن يكون البحث موجها إلى الفروع خاصة، ولكن بروز الحقيقة في الأصل يهدم بصورة عفوية كل باطل فرعى.

2- الطبيعة

بعد ما تبين لك، بما لا يقبل الشك، وجود الخالق الأول، وأنه الكامل المطلق، وأن السؤال عن خالق الكمال المطلق لا يصح، وتبددت أمامك تلك الشبهات، بقيت شبهة من شبهات العصر، وضلال آخرى من ضلالاته، وهي كما سيظهر لك مصطنعة كما تصطنع الأصنام، مخيمة على الأحلام كما تخيم الأوهام، ولكنها بكل أسف، مع اصطناعها هذا وعدم استنادها إلى أساس، نجدها مسيطرة على عقول كثير من يدعون الثقافة والمعرفة، وقد انطلت عليهم دون أن يكلفو أنفسهم عناء البحث والتمحيص. تلك الشبهة هي الطبيعة، إله العصر المزعوم.

حينما تبادر أحد الطبيعين بالقول:

من خلق السموات والأرض؟ يقول لك: الطبيعة

من خلق النبات والحيوان؟ يقول لك: الطبيعة

من خلق الإنسان؟ يقول لك: الطبيعة

من يدبر جميع هذه الأمور الفلكية، والحيوية والغرizية، وكل بحساب دقيق ونظام لا يحيد، فسيقول لك: الطبيعة.

وهو يتذرع لك بهذا السبب لأنه لا يستطيع أن يقول لك: إنها تحدث بذاتها، أو من تقاء نفسها، وينكر قانون السبيبية، فهو أصاب حين أقر بالسببية، وأخطأ حين جهل السبب، وليس شأننا حين البحث في هذا الأمر أن نكتفي بالتسفيه والتشنيع، ولكننا نناقش الأمر من جميع الوجوه، فما كان

من حق أقررناه، وما كان من باطل فندناه، والعاقل الذي يصيخ إلى المنطق، والجاهل الذي يتبع هواه، ويقيم على الباطل ولو تبين له الحق.

فما هي الطبيعة؟ وما هي مفاهيمها؟ وما هي حقيقة تأثيرها؟

الطبيعة في اللغة: السجية والخلق. غير أن للطبيعة اليوم في عقول الناس حسب تفاوتهم

مفهومين:

المفهوم الأول: إنها عبارة عن الأشياء ذاتها فالجماد والنبات والحيوان، كل هذه الكائنات هي الطبيعة، وهو مفهوم غير دقيق، وحكم غير سديد كما سيتبين لك.

المفهوم الثاني: إنها عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها؛ فهذه الصفات: من حرارة وبرودة، ورطوبة وبيوسة، وملاسة وخشونة، وهذه القابليات: من حركة وسكون، ونمو واغتناء، وتزاوج وتوالد، كل هذه الصفات وقابليات هي الطبيعة. سواء أكان القول الأول أو القول الثاني هو المعبر عن الطبيعة بحق، مما نصيّب هذا القول من الحق؟

أما القول الحق: فلا يخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماء بالماء، فالأرض خلقت الأرض، والسماء خلقت السماء، والأصناف صنفت نفسها، والأشياء أوجدت ذاتها، فهي الحادث والمحدث، وهي المخلوق والخالق في الوقت ذاته، وبطلان هذا القول بين، فهو إما إدعاء بأن الشيء وجد ذاته عن غير سبب وقد تبين لك فساده بقانون السببية وإما إدماج الخالق والمخلوق في كائن واحد، فالسبب عين المسبب وهو مستحيل؛ بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج إلى الوقوف والشرح.

وأما القول الثاني: وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين، فنقول فيه: الحقيقة إن الذي يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص، لا يعدون عن كونهم وصفين لتلك الظواهر، لا يعرفون كنهها، ولم يكفووا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها، ولو فعلوا ذلك

لوجدوا أن القابلية التي اعتمدوا عليها في خلق الشيء سراب خادع يحسبه الظمان ماء، حتى إذا جاء إليه لم يجده شيئاً، ولإيضاح ذلك بالطريق العلمي نضرب المثال التالي: نضع حبة في التراب، ونسقيها بالماء فتنتفخ، وتتفاقق، فيظهر منها الرشيم، ويندفع منه الجذر إلى الأسفل، والساقي إلى الأعلى، وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار، وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلاً.

فالقابلية التي كانت في الحبة هي الانتفاخ ثم الانفلاق ثم ظهر الرشيم. ولو لا هذه القابليات المتواتلة لما اطردت تلك الظواهر الحيوية، ولما نشأت عنها الثمرة. فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها: لو لم تتنفس الحبة وتتفاقق لما نشأ شيء. فمن الذي نفخها وفرقها؟ لو كان للحبة عقل وتدبير لقنا: إن عقلها هو الذي هيا لها ذلك، ولو أن الماء هو الذي نفخها وفرقها، لأمكن للماء أن ينفع في الحديد ويفرقه، إذن فلا بد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر، وإذا كانت الحبة بذاتها جدلاً انتفخت وانفاقت، فلماذا لم تجمد وتضمر بدلاً من أن تتنفس وتتمو؟ ولكي يحصل التكاثر والبقاء، يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك، ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة، والبذرة لا تملك شيئاً من ذلك! فكيف حصلت إذن ثمرة بعينها، بل كيف حصلت ثمار كثيرة متنوعة، وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة في صميم كل بذرة منها؟ والحقيقة أن من أنعم النظر في تعبير الطبيعين المستدين إلى القابلية: طبع النبات على ذلك، انتفخت الحبة، وانفاقت، وتوالدت الخلايا، تميل الخلية الحية إلى الانقسام؛ يجد أنها جميعها أفعال مبنية للمجهول لجهل الفاعل الحقيقي، فكان الطبيعي أغمض العين عن السبب الحقيقي، وبني الفعل للمجهول تخلصاً. فمن الذي نفخ الحبة؟ ومن الذي فرقها؟ ومن الذي أدى إلى التوالد؟ ومن الذي جبل الخلية على الانقسام؟ كل هذا التحقيق لا تصل إليه نظرة الطبيعين القصيرة بل المقتصرة على وصف الظواهر، دون الذهاب إلى أسبابها، بل المخطئة في جعل الصفة المنفعلة سبباً فاعلاً، والقابلية مؤثراً، والظاهرة المجهولة عاماً مكوناً، فالانتفاخ صفة، نشأت عن المؤثر الخارج عن الشيء، وعن قبول أثره في ذلك الشيء. والانفلاق صفة، والامتداد صفة.

وما زاد الطبيعي على أن جعل من مجموع هذه الصفات مفهوماً مركباً، سماه قابلية التوالد والنمو. فجعل من القابلية التي هي عرض من أعراض الشيء سبباً في الخلق، ومن الصفة الانفعالية التي لا تعي ولا تدرك، سبباً فاعلاً واعياً في تكوين الأشياء! إذن فمن الذي ركز

الطبيعة في العناصر؟ ومن الذي نوع تلك الطبائع؟ إن بذرة الأجاجص، وبذرة المشمش، حين توضعان في التراب تنتج كل واحدة منها ثمراً يختلف عن الآخر، بلونه وطعمه، ورائحته، مع أنه يسقى بماء واحد، ومع اتفاقنا على أنه ليس للبذرة عقل، ولا لجذر الشجرة إدراك، فكيف كان الجذر يمتص الماء، ويصطفي ذرات بعينها، وينضج النسغ ويسوقه إلى الثمر، ويكون العصارة، وينشئ الحلاوة؟! كل ذلك يجعلنا نسأل عن السبب، ولا نقف عند المجهول، ولا نكتفي بوصف الظواهر، بل لا نصف هذه الظواهر خطأً بأنها أسباب الخلق الحقيقة، ونحن نعلم أن القابلية ليست إلا صفة من صفات الشيء فكيف تختلف؟ وأن الحبة بالنسبة للنبات جماد لا يعقل؛ فكيف تتنوعه؟ وإذا لاحظت أننا مجبرون بحكم هذه النظرة إلى طبائع الأشياء، أن نسأل عن حقيقة تلك الطبيعة، وعمن طبع الأشياء عليها، وكيف تؤثر؟ وهل تبدع أم تصنف وتركب، وهل هي فاعلة بذاتها، أم منفعة لغيرها؟ أدركت أن الطبيعين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل كثيرة، ومن الأصل الحاسم إلى الفروع التي لا تحسم الأمر، فبينما كنا نسأل عن خالق الحبة وفالق النواة، انتقلنا بتلك النظرة القصيرة المتجاهلة إلى صفات انفعالية ليس لها من القدرة على الخلق نصيب، ولو لا قصر النظر عند الطبيعين على هذه الأسباب الغريبة المحيرة دون مبرر؛ لوجدنا الجواب شافياً منطقياً منسجماً مع ما تقدم من التحقيق العلمي في الآية الكريمة التالية:

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبَّ وَالنَّوْءَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

الأنعام : 95 وبذلك ترجع الأسباب كلها إلى الخالق الأول وتعرف المجاهيل، ويحسم الأمر.

ولكي نزيد الأمر وضوحاً، نضرب لذلك مثلاً. محرك السيارة، فإن تحرك أجزاء المحرك، واحتراق البنزين، والقوة الدافعة في محصول الانفجار، كل تلك الخصائص قابليات وطبائع، فهل تجد أن القابلية غير ذات الشيء، وأنها إن كانت سبباً في اندفاع الظواهر، وبروز المظاهر، فهو في حدود التركيب والتصنيف، لا في حدود الخلق والإبداع، وهي في المراحل الأخيرة، لا في المرحلة الأولى من خلق الوجود، ولذلك إذا أراد الطبيعي الخروج من هذا المأزق، وأقر معنا من أن هذه الطبائع أسباب فرعية في مجال التكاثر والتتويع، ولا تعدو في حقيقتها نوعية تساند الأسباب التي تكلمنا عنها في مبدأ السبيبية. فلنا له: رجعت إذن إلى الأصل الذي بحثنا عنه من قبل وأثبتناه، ولم تستطع أن تجد ضمن الكائنات من طبائعها ما يصح أن يكون سبباً لإخراج

الوجود من العدم. وإذا أردت أن تعرف العلة النفسية في تكوين هذا الإله الزائف الطبيعية لدى بعض الناس، وجدتها في السلسلة التالية.

عain الإنسان صفة الشيء، فأضاف الصفات بعضها إلى بعض، وكون من مجموع الصفات مفهوماً، وسمى المفهوم قابلية أو طبيعة، ومالت النفس إلى الراحة والاختصار فجعلت من تلك الطبيعة في خيالها ذاتا مستقلة فعالة، وأسلم لها خاضعاً، من بعد أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن، يصنعها ثم يتخيّل أن له النفع والضر، ثم يعبدـه.

وما أشد التشابه بين من كان يعبد الأصنام من قبل ويجادل عنها، ومن يعبد الطبيعة اليوم ويجادل عنها، فالعلة النفسية واحدة، ونوعية الخطأ واحدة، ألا وهي الاصطناع في أول الأمر، وتوهم الاستقلال والتأثير في آخره، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخدعة في آيات كريمة منها:

"مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمْرٌ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيمَانُهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" يوسف : 40
قالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قالَ فَدُّ وَقَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعْكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ" الأعراف : 70-71
فانظر من أي ناحية ضل البشر من قبل، ومن أي ناحية يضلون اليوم، والقضية ليست إلا أسماء يسمونها في البداية، ثم يجادلون كحقيقة واقعة في النهاية.

وخلصة القول في الطبيعة: أنها إما قول بأن الأشياء حدثت بذاتها؛ وهو قول ساقط من كل اعتبار.

وإما قول بأن الصفات تختلف الذات، وهو أشد تداعياً وسقوطاً من القول الأول؛ لأنه إذا عجزت ذات الشيء عن خلقه، فكيف تستطيعه الصفات؟ وإما اعتبار للقابلية على أنها سبب متاخر كبقية الأسباب، ففتقر إلى السبب الأول وهو الذي نقول به.

إذن في الأحوال الثلاثة لا بد من الرجوع إلى الخالق الأول، وتأتي الطبيعة متاخرة منفعلة له مفترقة إليه.

وهكذا تجد أن الطبيعة - إله العصر المزعوم - لم تثبت أمام النقد المنطقي والشرح العلمي، ولن يست بالنسبة للموجودات سوى صفاتها وقابليتها وقوانينها التي تجري عليها، وأن طبائع الأشياء لا تختلف.

3 – التوحيد

إذا كان سراب الطبيعة قد تبدد أمام ناظريك، وأصبح أفق معرفة الخالق الأول واضحاً لديك، يمكنك أن تستكمل معرفتك هذه بالتعرف إلى صفاته عز وجل، التي يلزمك بها البحث، مستنداً إلى الحقائق المتقدمة، وصفاته التي تستنتج من ذلك فنقول:

هو الأول: ليس قبله شيء، لأن القول بشيء قبله يجعل له حدوداً، والحدود من صفات الحوادث، وقد فدنا ذلك من قبل.

وهو الآخر: وليس بعده شيء للمحذور نفسه، فهو إذن الأزلية الأبدية.

وهو الحي: الحياة المطلقة، لأن الواهب الحياة للأحياء، ولا يصح إلا أن تكون مطلقة، لأن النسبة من صفات الحوادث.

وهو السميع العليم البصير القدير: لأن هذه الصفات لوازم صفة الحياة، ولما كان الإطلاق صفة لحياته، كان الإطلاق ملزماً لجميع الصفات الأخرى، بحيث لا يعجز السمع أو البصر أو العلم أو القدرة معجز.

وهو الواحد : الذي لا شريك له في الملك، ولما لهذه الصفة من أهمية عظيمة، وخطورة بالغة، نخصها بالتفصيل التالي:

لعلك أدركت من تسلسل البحث، ومن ذكر الصفات المتقدمة، ومن الجزم بكمال الله المطلق، أن التوحيد حاصل ولا يحتاج إلى برهان، بل إن التعدد هو الذي يفتقر إلى الدليل، ولكننا على الرغم من ذلك، نعرض بالتنمية، فإن ثبتت التنمية، صح التعدد من غير حصر، وإن بطلت بطل التعدد أصلاً، ولزم التوحيد.

فالقول بالتشتية يلزم بوجود صفة مميزة بين الاثنين؛ لأن التساوي التام من جميع الوجوه باطل، ولا يصح بالتصور إلا إذا انطبق الأول على الثاني تمام الانطباق، فيبقى في النتيجة كائن واحد، ولما انعدمت الصفة المميزة انعدم التمييز، فإن قال مكابر: بإمكان التمييز بين اثنين حال التساوي التام، قلنا له: أقمت الحجة على نفسك حينما ميزت، وما ميزت إلا بإدراك صفة مميزة، وجود صفة مميزة يبطل التساوي التام، إذا بطل التساوي التام، حصل التفاضل بين الاثنين فسقط المفضول وبقي واحد.

والقول بالتشتية، من الوجهة الرياضية يفيد وجود إطلاقين، وذلك محال، لأن وجود أحدهما ينافي إطلاق الآخر، فهو إما أن يدخل في إطلاق الأول، فلا يبقى إلا الأول، وإما أن يخرج عن نطاق الأول، فيسقط إطلاق الأول المفترض، ويبقى الثاني، أي أن الإطلاق محيط، ولا يحاط به، والنتيجة، أنه لم يبق إلا إطلاق واحد.

وهذا كما أنه دليل على التوحيد، فهو دليل على حدوث العالم ونفي قدمه، لأن القول بقدمه يفيد وجود إطلاقين، وذلك محال كما رأيت، ومن هنا نفهم المعنى العميق للآلية الكريمة: "الله الخلق والأمر". أي أنه ليس تصريف الكون وحده حادثاً فحسب، بل الكون كله: خلقاً، وتصريفاً مقهوراً للخلق، فهو حادث بمادته ومعناه.

وإذا أردنا أن نجلب معنى هذا البرهان بالنسبة للتوكيد والتعدد، قلنا: حين وجود اثنين يتترتب على أحدهما أن يحيط بالثاني قدرة وعلماً؛ فإن عجز عن ذلك، فهو ليس بـإله، وبقي واحد، وإن قدر على ذلك، سقطت الــلوهية الثانية وبقي واحد وبعض الفلاسفة يسمى هذا بــبرهان التمانع، فيقولون: لو كان هناك إلهان، يريد أحدهما قيام زيد في آن، ويريد الآخر قعوده في ذلك الآن، فمحال نفوذ الإرادتين، لاستحالة المراد، وجمع الأضداد، فإن غلت إرادة أحدهما على الآخر، وهذا الآخر عاجز مقهور، فهو ليس بـإله، وبقي واحد.

وقد أورد عن ذلك ابن جرير الطبرى، قال: لم يخل كل واحد من الاثنين من أن يكونا: قويبين، أو عاجزين. فإن كانوا عاجزين فالعجز مقهور، وغير كائن لها، وإن كانوا قويبين، فإن كل واحد منهمما يعجزه عن صاحبه عاجز، والعاجز لا يكون لها. فإن كان كل واحد منها قوياً على صاحبه، فهو بــقوه صاحبه عليه عاجز.

إذن لم يبق إلا الواحد المطلق الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وما قال ومن قال بالتعدد إلا عن عقلية ابتدائية، وفكرة وثنية، وتصور خيالي مصطنع، بعيد عن التحقيق، مصادم للعقل.

ولم يبق في الدنيا من يلتزم العقل والمنطق يقول بالتعدد. بل إن التحقيق لا يرشد إلا إلى التوحيد، بريئاً من صفات الحوادث، كالإلصاق والتفریع والولادة، فكما أن التعدد باطل، فطرقه من بعد أشد بطلاناً وأقبح، وهكذا ينهار التعدد بجميع صوره كالوثنية والتثلث وغيرهما، على الرغم من إقامة كثير من البشر اليوم على هذه العقيدة الفاسدة بكل أسف، ولو رجعوا قليلاً إلى العقل والمنطق لانهدمت أمامهم هياكل الوثنية وأساطير التعدد لقوة البرهان، وصرامة الحجة، وثورة العقل على هذا التناقض المشين، فليت شعري، متى يثور مفكرو العالم الأحرار وعقلاؤه المتجردون على هذه الوثنية النكراء، فيمزقوها غشاء العنكبوت، ويقودوا العالم إلى التوحيد؟!

والقرآن الكريم هو الذي حمل لواء التوحيد للناس، ونص على ما تقدم من تفنيد التعدد وبطلانه، وتأكيد التوحيد وثبوته، في آيات كثيرة حملت أنصع بيان وأقوى برهان، منها:

"لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسْبُحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ" الأنبياء : 22
"مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" المؤمنون : 91.

"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" الحديد : 3

"إِلَّا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ إِلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ" فصلت : 54

"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ" الإخلاص : 1-4

وهكذا تثبت حقيقة التوحيد للخلق القديم بما لا يدع مجالاً للريب والتردد. والأحرى بالعالم المحقق، أن يدعوا الناس إلى ذلك، ويفند لديهم نحلة التعدد، ويفضح زيفها وبطلانها، لكي يخرجوا من الظلمات إلى النور، ومن التناقض المشين إلى الانسجام المنطقي المبين، وبذلك تخرج النفس البشرية مما تعانيه من الحيرة والتردد، والكبت والقلق، والجنوح بالنتيجة إلى السبل الشاذة، والمناهج السخيفة، المضحكة المبكية، والتي يثبت التحليل النفسي أنها ليست إلا صورة حسية تعبّر عن إفلات البشر في التماس طريق الحق.

4- عود على بدء

واستكمالاً لكل جوانب الإقناع في هذه المسألة مسألة الطبيعة، والسببية، والتوكيد ننقل هذه الرسالة الجيدة لمديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، قال: "قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌ فَاطرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" إبراهيم : 10. تأمل في هذه الآية وما فيها من الاستفهام الإنكارى، إنها تدل على أن الحكم بوجود الله ووحدانيته، من أوضح البداية لكل من أبصر بعينه مرة هذه السماوات والأرض، غير أنه بالرغم من ذلك، فإن فيما يلفظ به بعض المسلمين اليوم كلمات، أقل ما فيها أنها تؤمئ إلى الكفر بهذه الحقيقة الكبرى.

وسأتناول منها بالبحث ثلات كلمات لا يردها في الغالب إلا أحمق ذاهم عن حقائق الأمور، ولحد جعل من برذعة إلحاده حلة يفاخر بها ويتباهى بها: إحداها أوجنته الأسباب والثانية تشكل بنفسه، والثالثة اقتضته الطبيعة.

إن حالات كثيرة تتبع من الأخذ بمبدأ هذه الكلمات الثلاثة القذرة، ولو ذهبت أعدها بتفصيل علي موسوع؛ لتجاوزت تسعين محلاً من الحالات التي لا يشك فيها علم عالم ولا عقل عاقل، ولكي سأكتفي من بيان ذلك كله بالعشر فقط ذكره في عبارات موجزة سريعة.
أما الكلمة الأولى أوجنته الأسباب: فهناك بعض حالاتها:

المحال الأول: الناتج عن كلمة أوجنته الأسباب يظهر جلياً في هذا المثال وقع احتياج إلى معجون مستحضر من بضعة عقاقير وحشائش مختلفة الأنواع والمقادير، وقام الصيدلي بتحضير هذا المعجون طبق موازين دقيقة، بحيث لو أن بعض الأجزاء طغى على الحد المطلوب أو قل عنه، لأدى ذلك إلى عكس الفائدة المرجوة منه.

فلو أن زلزاً مثلاً وقع بين تلك القوارير التي استحضر منها الدواء، فتكسرت وسال ما فيها، وجرى بعضه إلى بعض، فاختلطت الأجزاء المتعددة، وتلاقت إلى بعضها، فهل يمكن أن يكون المحسول المركب من ذلك الخليط مساوياً لذلك الخليط الذي استحضره الصيدلي بميزانه الدقيق وخبرته العلمية وحسابه المنظم؟ وهل يقبل مثل هذه الدعوى سوى من فاتته نعمة التفكير والعقل؟!

إن كل ذي حياة على هذه الأرض ما هو إلا معجون رائع، ركب من ملايين الأجزاء العجيبة المختلفة، أخذت بمقدار وضمت إلى بعضها بحكمة ونظام. فلا ريب أن إسناد هذا الشكل إلى عمل الأسباب المادية الجامدة والعناصر الميتة الصامتة، أشنع وأقبح من الإسناد في ذلك المعجون الذي حصل من تصدام القوارير وسيلان ما فيها.

الحال الثاني: إن إسناد خلق الأشياء إلى أسبابها المادية، يستلزم أن يكون للكثير من العناصر والأسباب الدقيقة المتقاضة تأثير مباشر في وجود الأشياء. والحال أن تلقي الأسباب المختلفة المتباعدة على بعضها باتفاق من جهة، ودقة موزونة من جهة أخرى. في خلق البعض مثلاً إن لم يكن من أجل الحالات، فهو من أشد الممتعات؛ لأن جسم ذلك البعض مع صغره ذو علاقة بأكثر العناصر والأسباب المادية المثبتة في الكون، بل إنه بحق خلاصة وزبدة لها، فلو سلمنا ادعاء استناد هذا الموجود الصغير إلى تلك الأسباب؛ للزم أن تحتشد جميع العناصر والأسباب كلها بالذات عند إيجادها، بل يجب توافرها كاملة في جسمها، بل في حبيرة من حجيرات جسمها ولأن السبب المادي ينبغي أن يكون موجوداً مع المسبب داخلاً فيه، أي فينبغي أن تكون هذه العناصر المادية المتقاضة كلها مجتمعة على الدوام، تعمل عملها في كل حبيرة من حجيرات جسم البعض، دون من يدفعها إلى هذا التلقي والتفاعل.

وهل هذا إلا وهم يستحي بلهاء السفطائيين من الهذيان به.

الحال الثالث: إن القاعدة البديهية تقول: إن الواحد لا يصدر إلا عن الواحد، أي كل ما يتصرف بوحدة النظام والتسيق والانسجام في مظهره وشكله، فلا بد أن يكون المؤثر فيه واحداً، ضرورة أن التأليف بين المتباارات، والجمع بين المختلفات في وحدة نوعية أو جنسية، لا يمكن أن يتم إذا ما اجتمعت عليه أكثر من إرادة ويد واحدة، ولا ريب أن هذا العالم العظيم تجمعته كله وحدة الانسجام والتنظيم، فإسناد وجوده بعد ذلك إلى الأسباب الجامدة المختلطة، التي لا شعور لها ولا عقل، من أعظم الخرافات المضحكة. هذا إلى أن الأسباب المادية لا يمكن تأثيرها إلا بواسطة التماس وال المباشرة، وغير خاف أن تجانسها إنما يكون بسطح الموجودات وظاهرها، مع أن في بواطنها ووراء حدود المحس منها من الانتظام والغرابة والانسجام ما ليس في ظواهرها، فأين أسبابها المادية الموجدة لها؟ بل أين من يستطيع أن يفرق في غوص ذلك

الباطن، بين السبب المؤثر والسبب المتأثر، يفصلهما، ويفرق بينهما في الزمن والجوهر
والحدود؟

أما الكلمة الثانية تشكل بنفسه: فهي أيضاً تتضمن على محالات لا تعمى عنها الأ بصار. غير أن الفكر المعاند من شأنه أن يبلغ به الكبر مبلغاً يلبسه برذعة الحمق. إن الإنسان العادي من شأنه أن لا يخضع لمحال واحد يتراهى لعقله، ولكن مثل هؤلاء المعاندين لا يبالى أن يدافع عن حشد من المحالات، النابعة عن الباطل الذي أقسم أن لا يتخلى عنه. إنك أيها الإنسان لست مادة بسيطة جامدة ملقاة على سطح هذا الوجود، إنما أنت جهاز معمل دقيق كبير. بلغ في دقته غاية الروعة والانسجام. إن في جسمك ذرات عاملة ساعية على الدوام. إن لجسمك تفاعلاً في غاية الانظام مع سائر مظاهر الوجود من حولك، إنها أشبه ما يكون بتفاعل على البيع والشراء والأخذ والعطاء. إن ملابس الذرات العاملة في جسدك تظل ساهرة على حفظ سير هذا التفاعل ودقة انتظامه، وهكذا نعلم أن الانسجام ليس بين ذرات جسمك وحده، بل بين مجموع هذه الذرات والوجود الخارجي من حولها، إن هذا يعني أن ثمة وحدة انتظام سارية بأتم دقة بين وجودك العضوي ووجود سائر الكائنات من حولك!

إذا رفضت أن توافق بأن الذرات الساعية في جسدك، إنما تتحرك فيه طبق قانون الخالق الأزلية العظيم، لزمك أن تقول إن للذرات التي تتفاعل في حجيرة واحدة من حجيرات عينك مثلاً عقلاً متفلساً هائلاً، وضع به قانون الانسجام والتطابق بين كل ذرة من جسدك من جهة، وذرة من ذرات الوجود من جهة أخرى، سواء كان ذلك الوجود هواء أو ضياء أو طعاماً أو شراباً أو أي شيء آخر، كما ينبغي أن يكون لكل ذرة من هذه الذرات فكر، يدرك منابر دهرك، وعناصر آبائك وأجدادك، ويتصور ماضيك ومستقبلك. يا لخرافة العnad المتكبر !!

أما إذا كان جوابك عن عالم الذرة ونظامها نفس جوابك عن عالمك الحسي هذا. أي أن له أيضاً أسبابه المادية وتتفاعل الذاتي، فإن السؤال سيلاحقك عن العالم الثالث الذي من ورائهم، والذي هو أدق من كليهما، وهكذا تتسلسل العوامل والأسباب إلى غير نهاية وتمتد إلى حيث يضل وراءها عناid المعاندين وجحود المتكبرين.

أما الكلمة الثالثة اقتضته الطبيعة: فيتفرع عنها سلسلة من مظاهر التفاوت المضحك، نجمل بعضها فيما يلي:

1- إن صاحب هذا القول ينبغي أن يلتزم أن كل ذرة من ذرات الوجود تتضمن على مجموعة العوامل والمؤثرات التي أبدعت هذه المجموعة الكونية، وأنها تشتمل على القدرة والطاقة الكافية لإبداع عالم كامل كالذي نراه من حولنا، وما على هذه القدرة إلا أن تنفذ ذلك وتعمل عملها.

2- إذ ما دام في كل ذرة من ذرات هذا الوجود طبيعتها الخلاقة، المدبرة الحكيمية، منفصلة عن غيرها، غير مرتبطة بقيادة عامة لها ولأمثالها، فلا مناص من التزام هذه النظرية. تماماً كالذي يرى شعاع الشمس يسطع من قطرات المياه، وقطع الزجاج والأجرام الشفافة، ويأبى إلا أن يزعم أن في كل جرم من هذه الأجرام طبيعته الشعاعية المستقلة بذاتها، فلا ريب أنه ينبغي أن يلتزم ويعترف بوجود شمس حقيقة مستقلة ضمن كل جرم من هذه الأجرام المضيئة كل على حدة.

ومن أراد أن يضحك من خرافات هذه النتيجة؛ فليضحك قبل ذلك من خرافة المقدمة التي راح يزعمها ويتبنّاها.

3- إن على صاحب هذا القول أن يلتزم بأن شبراً واحداً من أي أرض معينة، تتضمن على ما لا تتضمن عليه دول العالم كله من المصانع والمطابع والمواد الأولية المختلفة؛ ذلك أن قدحاً واحداً من التراب الذي لا تزيد مساحته على شبر، يمكن أن تستثبت فيه معظم أنواع النباتات وأزهار العالم، على سبيل التناوب. فلو لم تكن قدرة الخالق العظيم هي التي تقذف في تلك الأرض قدرة التفاعل، مع ما تستقبله من مختلف النباتات والبذور، لتعطي كلاً منها ذاته وشكله وخصائصه، إذا لكان لا بد أن توجد في تلك التربة عناصر وقابليات متناقضة، بل ينبغي كما قلت أن تكون طاقة الصناعات الأوروبية كلها محشورة في ذلك الشبر من الأرض، إذ من المعلوم أن مواد النطف والبذور واحدة لا تختلف، وهي عبارة عن مزيج: مولد الماء، ومولد الحموضة، والكريbones، والآزوت، ومواد الماء، والهواء والحرارة والضياء، هي الأخرى بسيطة لا تختلف في جريانها حول نبت وآخر.

ومع ذلك؛ فإن هذه النباتات تتربع فوق ذلك الشبر من الأرض، كل واحد يحمل صفاتها وخصائصها ولونها ورائحتها، فلا بد أن يوجد في ذلك التراب شيء آخر غير المواد المعروفة للتراب والبذر والهواء، يمد هذه البذور بخصائص التشكيل والتميز. فانظر وتأمل في مدى بعد هذا الكلام من الفكر والعقل!!

4- أذكر هنا مثلاً كنت كتبته في بعض الرسائل الأخرى، يوضح حالة المنتسبين إلى الطبيعة.
لنفرض أن في قلب بعض الصحاري بناء رائعاً، مشيداً على أحسن طراز وأدق هندسة.
وصادف أن دخل هذا الصرح بدوياً متواحش، لم يسبق أن رأى في حياته غير صروح الخيام،
فتأمل في براعته ونقوشه ومظاهر إتقانه، ثم حدث نفسه أن ليس في هذه الصحراء كلها من
يقدر أن يبدع مثل هذا الإبداع، فلا بد أن الباني يجثم في جوف البناء نفسه. ثم راح ينظر
ويقتضي عنه في الغرف من حوله، فلم ير أحداً، ولكنه عثر على أوراق فيها: خارطة البناء،
ومواده، وتفاصيل هندسته، ففكر قليلاً أن هذه الأوراق لا بد لها ولا بصر، فليس من شأنها أن
تشيد بناء. ولكنه ما لبث أن عاد فتعلق بها قائلاً: ولكن هاهي ذي تبحث عن قوانين تشيد به
وكيفية تأليفه، إذا فليس ثمة غيرها المشيد والباني. فكذلك يدخل بدوياً متواحش لم يهضم عقله
إلا اسم الطبيعة إلى صرح هذا الكون العظيم، فيدهشه أنه يرى إبداعاً لا يجد من حوله بسبب
عقله القاصر من أبدعه، ويتأمل في شياهه وأطراوه، فيعثر على اللوح الذي سجلت فيه قوانين
الفطرة الإلهية وقواعد صنعته الإبداعية المسمة خطأ بالطبيعة فينبهر لها، ويحدث نفسه وهو في
غيبوبة عقلية تامة أن لا بد أن هذا اللوح بقوانينه هو الذي أبدع هذا الإبداع، وصنع هذا الصنع.
ونحن نقول: أيها السكران الأحمق، ارفع رأسك عن بئر الطبيعة، وانظر وراءك إلى صانع
الكون. إن ذلك الذي بنى هذا الصرح، ووضع أمام عينيك في جنباته، قانون تشيد به، ودستور
إيجاده، إنما هو الخالق الأزلية إله العالمين جل جلاله، لا الطبيعة التي أنت أجد منهما وأجهل.
إن الطبيعة صنعة لا صانع، نقش لا ناقش، حكم لا حاكم، شريعة لا شارع، مخلوق لا خالق،
منفعل لا فاعل، مصدرة لا مصدر. انتهى كلام الشيخ سعيد النورسي رحمه الله تعالى.

دلالات الظواهر الكونية على أسماء الله وصفاته

كل ظاهرة من الظواهر الكونية تدل على اسم الله عز وجل، وهذه الأسماء التي تدل عليها الظواهر توصلنا إلى صفات الله عز وجل، وصفات الله عز وجل كثيرة منها ما تدلنا عليه النصوص وحدها وهي الصفات السمعية، ومنها ما تدلنا عليه الظواهر الكونية والنصوص وهي صفات الفعل، وصفات الفعل توصلنا إلى ثلات عشرة صفة: واحدة منها يسميها العلماء نفسية وهي الوجود، وخمس منها يسميها العلمية سلبية وهي القدم والبقاء والوحدانية والقيام بالنفس والمخالفة للحوادث، وسبع منها يسميها العلماء صفات معاني أو صفات وجودية وهي العلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام.

والله عز وجل متصف بصفات الكمال والجلال والجمال ولا يسمى إلا باسم سمي به نفسه ومن هذا كله نصل إلى أسماء الله الحسنى التي بعضها صفة فعل، والتي بعضها صفة معنى، والتي بعضها صفة سلبية والتي بعضها صفة جلال أو كمال أو جلال، وكل ذلك تدل عليه الظواهر بشكل مباشر أو بشكل ضمني، وهذا البحث يسير بك في هذا كله مع استطرادات يقتضيها المقام فلنبدأ عرض المسألة من بدايتها:

هناك قاعدة تقول: إن الآثار تدل على الأسماء، والأسماء تدل على الصفات، والصفات تدل على الذات، ولنضرب على هذه القاعدة مثلاً يوضحها: لو أخذنا كتاباً ودرسناه، فإننا بواسطة دراستنا للكتاب، نستطيع أن نتعرف على كثير من صفات صاحبه، وبالتالي نتعرف عليه تعرفاً ما، فإذا كان في الكتاب أدب، حكمنا على صاحبه أنه أديب، وإذا كان مبتراً، حكمنا أن صاحبه مبدع، وإذا كان لا يخرج على قواعد النحو حكمنا بأنه نحوبي، وإذا كان بلغياً، حكمنا على صاحبه بأن بلغ وإذا كان فيه إحاطة في موضوعه، فلنا عن صاحبه بأنه محيط، وإذا كان فيه دقة في العرض وجمال، حكمنا على صاحبه بأنه ذو افة ودقيق، وإذا كان الكتاب مرتبًا منسجماً متسللاً للأفكار، حكمنا على صاحبه بأنه ناضج، وإذا كان في الكتاب علم كثير، حكمنا على صاحبه بأنه عليم، وهكذا، فكل ظاهرة في الكتاب، تدلنا على صفة من صفات صاحبه، نسمي صاحبها بسببها أسماء مشتقة منها، له علاقة بها، وبالتالي نكون قد عرفنا صاحب الكتاب نوع معرفة.

ولنطبق القاعدة الآنفة الذكر على بحثنا.

فقد استعرضنا في الصفحات الماضية تسع ظواهر كونية، كل ظاهرة من هذه الظواهر تدل على اسم من أسماء الله أو أكثر، فالكون من آثار الله وحوادثه من آثار الله كذلك، قال تعالى: "فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ الرَّوْمَ" الروم : 50. وآثار الله تدل على أسمائه وأسماؤه تدلنا على صفاتيه، وصفاته تدلنا على ذاته.

فظاهرة القدم وحدوث العالم، تدل على اسم الله الأول والخالق، وظاهرة الحياة تدل على اسم الله المحيي والبارئ والمميت، وظاهرة الهدایة، تدل على اسمي الله الهادی والمضل وظاهرة الإبداع، تدل على اسم الله البديع، وظاهرة الإجابة، تدل على اسم الله المجيب، وظاهرة النعمة، تدل على اسم الله المنعم المعطى وظاهرة الوحدة، تدل على اسم الله الواحد، وظاهرة الحکمة، تدل على اسم الله الحکيم.

وعلى هذا؛ فكل ظاهرة في الكون ذكرناها أو لم نذكرها، تدل على اسم من أسماء الله تعالى فظاهرة رزق كل مخلوق، تدل على اسم الله الرزاق، وظاهرة الإعزاز والإذلال، تدل على اسمي الله المعز والمذل، وظاهرة ثبات القوانين في الكون، تدل على اسمي الله المهيمن، وظاهرة وجود المخلوقات، تدل على اسمي الله القادر والمقدتر، وظاهرة ترتيب الأشياء بعضها وراء بعض، تدل على اسمي الله المقدم والمؤخر، وظاهرة الندم، تدل على أسماء الله التواب والغفار والعفو، وظاهرة الانتقام، تدل على اسم الله المنتقم، وظاهرة النفع والضر، تدل على اسمي الله النافع والضر، وظاهرة إمهال المخالفين عن أمر الله تدل على اسم الله الصبور، وهكذا فما من ظاهرة إلا وتدل على صفة الله باسم.

غير أن دلالة الظواهر على الأسماء والصفات، تختلف باختلاف المتعلق، واختلاف الارتباط: فمنها ما يدل على صفات الفعل.
ومنها ما يدل على صفات الذات الوجودية.
ومنها ما يدل على صفات الذات السلبية، وكلها تدل على موجود.

والتوضيح الفروق بين هذه الصفات، نقول: لو قلنا: عن إنسان بأنه قاتل، فتلك صفة فعل من أفعاله، ولو قلنا: إنه سميع، فتلك صفة وجودية له، ولو قلنا: إنه لا يشرب الخمر، فتلك صفة سلبية له، ولكن الأنواع الثلاثة من الصفات، تدل على وجود إنساني معين.

والحقيقة أننا نعرف الصفات الوجودية بصفات الفعل، والصفات السلبية بصفات الفعل ونعرف الذات بكل الصفات.

و قبل أن نطبق ما قلناه على قضية التعرف على الله، نحب أن نذكر ماذا نعني بكلامنا: صفات وجودية، أو صفات فعلية، أو صفات سلبية.

المراد بالصفة السلبية بالنسبة للذات الإلهية: الصفات التي تدل على سلب ما لا يليق به سبحانه وتعالى، كالوحدةانية فإنها تنافي التعدد فتسلب عن الله ما ينافي الوحدانية.

والمراد بالصفات الوجودية بالنسبة للذات الإلهية: الصفات التي تدل على معنى زائد على الذات، كالعلم والسمع.

والمراد بصفات الفعل: تعلقات القدرة بالممكنات، فكل تعلق لقدرة الذات الإلهية بممكن، يدل على اسم وصفة وفعل.

فكل الظواهر التي نراها في هذا الكون، تدل على أربع صفات وجودية: العلم والإرادة والقدرة والحياة ، فلو لا القدرة ما كان هذا الكون، ولو لا تخصيص الإرادة الأشياء على ما هي عليه ما كان هذا الكون، ولو لا العلم ما كان شيء ، فأي جزء من أجزاء العالم يدل على علم سبق، وإرادة خصصت، وقدرة أبرزت، ومن لوازم اتصف ذات بالعلم والإرادة والقدرة أن يكون لها حياة.

والظواهر كلها تشير، إلى أن هذه الذات المتصفه بالعلم والإرادة والقدرة والحياة، والتي خلقت هذا الكون، متصفه كذلك بالقدم فلا أول لها، والبقاء فلا نهاية لها، والوحدةانية فلا ند لها، ومخالفتها لمخلوقاتها، فلا يشبهها شيء من خلقها، وقيامها بنفسها، فلا تحتاج إلى موجد أو مخصص.

والظواهر كلها تشير، إلى أن هذه الذات، كاملة منزهة عن كل نقص، ومن النقص العمى، فهي بصيرة، ومن النقص الصمم، فهي سمعية، ومن النقص البكم، فهي متكلمة. والظواهر كلها تشير إلى موجود متصف بهذه الصفات.

موجود لا بداية له فهو الأول، ولا نهاية له فهو الآخر، ولا ند له فهو واحد، ولا مشابه فهو قدوس، ولا حاجة به لأحد فهو القيوم.

موجود متصف بالقدرة فهو قادر، وبالحياة فهو حي، وبالسمع فهو سميع، وبالبصر فهو بصير، وبالكلام فهو متكلم، وبالعلم فهو عليم، وبالإرادة فهو مرید.

ومقتضى كثرة أفعال الله التي هي أثر عن العلم والإرادة والقدرة، أن يكون الله أسماء كثيرة، ولكن الأدب مع الله ألا نسمي الله إلا بما سمي به نفسه، بالوحي الثابت؛ لأنه لا يعرف جلاله إلا هو، ولكي لا ننسب إلى الله إلا ما يليق بذاته، الخير كله بيديك والشر ليس إليك، فلا نسميه إلا بما سمي به ذاته، ومجموع ما سمي به ذاته، يطلق عليه اسم: الأسماء الحسنى قال تعالى: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى" طه : 8. "قُلِ ادْعُوْا اللَّهَ أَوْ ادْعُوْا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى" الإسراء : 110. "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوْهُ بِهَا وَذَرُوْا الَّذِينَ يُلْحِدُوْنَ فِي أَسْمَائِهِ" الأعراف : 180. وما من اسم من هذه الأسماء الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، إلا وفي الكون ظاهرة تدل عليه، أو يصل العقل إليه.

وهذه الأسماء كما وردت في الكتاب والسنة تعبّر عن صفات سلبية أحياناً، وعن صفات وجودية أحياناً، وعن صفات كمال أحياناً، وعن صفات فعل أحياناً، فهي قد جمعت أمهات هذه الصفات كلها.

والأسماء الحسنى الله الواردة في الكتاب والسنة كثيرة، ومع هذا فهي ليست كل أسماء الله. فقد ورد في الحديث: "اللهم إني عبدك وابن عبدك ... أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك".

ومن هنا نعلم أن ما ذكر ليس هو كل الأسماء الحسنى، فإن جلال الله لا يتناهى، ولكن ما ذكر، تدلنا عليه ظواهر الكون بشكل صريح أو ضمني، فإذا اجتمعت دلالة العقل مع دلالة النص واتفقا، فذلك برهان سلامة العقل وحقيقة النص، على أنه في معرض الحديث عن الأسماء والصفات، ينبغي أن نلاحظ هاتين النقطتين اللتين أشار إليهما الأستاذ البنا رحمه الله يقول الأستاذ البنا تحت عنوان بين صفات الله وصفات الخلق:

والذي يجب أن يتقطن له المؤمن، أن المعنى الذي يقصد باللفظ في صفات الله تبارك وتعالى، يختلف اختلافا كليا عن المعنى الذي يقصد بهذا اللفظ عينه في صفات المخلوقين فأنت تقول: الله عالم والعلم صفة لله تعالى، وتقول: فلان عالم والعلم صفة لفلان من الناس، فهل ما يقصد بلفظة العلم في التركيبين واحد؟ حاشا أن يكون كذلك؛ وإنما علم الله تبارك وتعالى علم لا يتناهى كماله، ولا يعد علم المخلوقين شيئا إلى جانبه. وكذلك الحياة، وكذلك السمع، وكذلك البصر، وكذلك الكلام، وكذلك القدرة والإرادة، وهذه كلها مدلولات الألفاظ فيها تختلف عن مدلولاتها في حق الخالق، من حيث الكمال والكيفية اختلافا كليا، لأنه تبارك وتعالى لا يشبه أحدا من خلقه فتقطن لهذا المعنى فإنه دقيق، ولست مطالبا بمعرفة كنها؛ وإنما حسبي أن تعلم آثارها في الكون، ولو ازماها في حقله، والله نسأل العصمة من الزلل وحسن التوفيق. وكذلك يقول الأستاذ تحت عنوان التفكير في ذات الله:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، "أن قوما تفكروا في الله عز وجل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره، قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف، ورواه الأصحابي في الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه ورواه أبو الشيخ كذلك، وهو على كل حال صحيح المعنى.

وليس ذلك حبرا على حرية الفكر، ولا جمودا في البحث ولا تضييقا على العقل ولكنه عصمة له من التردي في مهاوي الضلال، وإبعاد له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها، ولا تحتمل قوته مهما عظمت علاجها، وهذه هي طريقة الصالحين من عباد الله العارفين بعظمة ذاته وجلال قدره.

فاحصر همتك في إدراك عظمة ربك، بالتفكير في مخلوقاته، والتمسك بلوازم صفاته.

ونحب أن نذكر في هذه الفقرة عن القرآن والسنة، على اعتبار أنهما المصادران الوحيدان للمعرفة عن طريق الوحي الصادق الذي يقوم عليه الدليل الكامل، كما سنرى في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم مجمل صفات الله كما وردت في القرآن، وبعضاً من أسمائه الحسنة كما وردت في الكتاب والسنة، لنرى أن ما دلتنا عليه الظواهر بالعقل، دلنا عليه الكتاب والسنة بالوحي عن طريق النقل.

يقول الأستاذ البنا تحت فصل مجمل صفات الله في القرآن:

أشارت آيات القرآن الكريم إلى بعض الصفات الواجبة لله تعالى، والتي يقتضيها كمال الألوهية، وإليك بعض هذه الآيات الكريمة:

1- وجود الله تعالى: قال الله تعالى: "اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلٍ مُسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفْصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقَنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمَنْ كُلُّ الْثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْتَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَكَبَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٌ صَنْوَانٌ وَغَيْرُ صَنْوَانٍ يُسَقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقُلُونَ" الرعد : 4-2 .

"وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئَدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَ أَكْمُ في الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقُلُونَ" المؤمنون : 78-80. وكل هذه الآيات تنبئك بوجود الله تبارك وتعالى، وتستدل عليه بما ترى من تصرفاته في شؤون هذا الكون العجيب.

3-2 - قدم الله تعالى وبقاءه: قال الله تعالى: "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" الحديد : 3. "وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" القصص : 88.

"كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِ" * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" الرحمن : 26-27. وفي هذه الآيات الكريمة إشارة إلى صفاتي القدم والبقاء لله تبارك وتعالى.

4- مخالفة الله للحوادث: قال الله تعالى: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ" الإخلاص : 4-1.

"فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمَنِ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" الشورى : 11.

وفي ذلك إشارة إلى مخالفته تبارك وتعالى للحوادث من خلقه وتتره عن الولد والوالد والشبيه والنظير.

5- قيام الله تعالى بنفسه: قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَنْتُمُ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" فاطر : 15.

"مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَخَذِّلَ الْمُضْلِلِينَ عَضْدًا" الكهف : 50.

ونصيف قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا" فاطر : 40.
"اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ" آل عمران : 2.

وفي ذلك إشارة إلى قيامه تعالى بنفسه واستغنائه عن خلقه، مع حاجتهم إليه.

6- وحدانية الله تعالى: قال الله تعالى: "وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّاهِي فَارْهَبُونَ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبَا أَفْعِيْرَ اللَّهِ تَنَقُّونَ * وَمَا بِكُمْ مِنْ نُعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ" النحل : 51-53.

وقال الله تعالى: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمْسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" المائدة : 73-74.

"أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنَشِّرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعُلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهٌ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" الأنبياء : 22-25.

وقال تعالى: "قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَإِنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ فَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ" المؤمنون : 84-92.

وقال تعالى: "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرًا أَمَّا يُشَرِّكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَّهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًّا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِلَّهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خَلَاءً الْأَرْضِ إِلَّهٌ مَعَ اللَّهِ فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيْكُمْ فِي ظُلُّمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَّهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ * أَمَّنْ يَبْدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" النمل : 59-64.

إلى غير ذلك من الآيات التي تثبت أنه تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته واحد، في أفعاله وتصرفاته لا رب غيره ولا إله سواه.

7- قدرة الله تعالى: قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْنَغَةٍ مُخْفَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِنَبِيِّنَ لَكُمْ وَنَقْرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءَ إِلَى أَجْلٍ مُسَمَّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمَنِكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكِيَّا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَّةٌ لَا رَيْبٌ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ" الحج : 5-7.

"مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضْلِلِينَ عَضْدًا" الكهف :

.50

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ" ق : 38
"وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مَلْحٌ أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا
مَحْجُورًا" وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصَهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا" الفرقان : 53

54

"إِنَّمَا تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيَنْزَلُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصَبِّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرُفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ
يَدْهُبُ بِالْأَبْصَارِ * يُقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْبَرَةً لَّوْلَيِ الْأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ
مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعِ
يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" النور : 43-45.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ تَبَارُكُ وَتَعَالَى، وَبَاهِرٌ عَظَمَتِهِ.

8- إِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى: قال الله تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" يس : 82.
"وَإِذَا أَرَدَنَا أَنْ نُهَلِّكَ قَرِيَّةً أَمْرَنَا مُتْرَفِيهَا فَسَقُوا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا" الإسراء
16 :

وَقَالَ تَعَالَى حَكَايَةً عَنِ الْخَضْرِ فِي قَصْتِهِ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: "فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغاَ أَشْدَهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا"
الكهف : 82.

"يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَنْتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
يَنْتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَبَعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ
وَخُلُقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا" النساء : 26-28 .

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي تَشِيرُ إِلَى إِثْبَاتِ إِرَادَةِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا فَوْقَ كُلِّ إِرَادَةٍ
وَمُشَيْئَةٍ: "وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" التَّكْوِيرُ : 29.

9- علم الله تعالى: قال الله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ" * يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ" سبأ : 1-2 .
 "يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلَمُونَ وَاللَّهُ عَلَيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" التغابن
 .4 :

وقال تعالى حكاية عن لقمان في وصيته لابنه: "يَا بُنْيَإِنَّهَا إِنَّكُمْ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ" لقمان : 16 .
 وقال تعالى في حكاية ما وقع بين شعيب وقومه: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكُمْ يَا شَعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيبَتِنَا أَوْ لَتَعْوِدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ" قد افترىنا على الله كذبنا إن عذنا في مللككم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا واسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين" الأعراف : 88-89.

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْمٌ" المجادلة : 7 .

"وَمَا تَكُونُ فِي شَاءٍ وَمَا تَتَنَلُّ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُقْيِضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مُتَّقَلٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" يومن : 61 .
 إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على سعة علمه تبارك وتعالى، وإحاطته بكل شيء، قل أو كثر، دق أو عظم.

10 - حياة الله تعالى: قال الله تعالى: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نُوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ" البقرة : 255 .

"الْمُ * الَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُ الْقَيُومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلٍ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ" آل عمران : 4-1.

"اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَصَوَرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيَّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" غافر : 64-65. إلى غير ذلك من آيات كثيرة ، تدل على أن الله تبارك وتعالى ، متصف بالحياة الكاملة ، التي ليس ثم أكمل منها.

12-11 سمع الله تعالى وبصره: قال الله تعالى: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" المجادلة : 1.
"أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىِ * أَوْ أَمْرَ بِالنَّقْوَىِ * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلََّ * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى" العلق : 11-14.

وقال تعالى لموسى وهارون عليهم السلام حين أرسلهما إلى فرعون: "إذْهَا إِلَى فرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيَّنًا لَعَلَهُ يَتَكَرَّأُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى" طه : 43-46.

"يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" غافر : 19-20.
إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على اتصافه تبارك وتعالى بصفة الكلام.

وقد سمي الله عز وجل ذاته في القرآن بأسماء كثيرة غير التي ذكرناها. فمن الآيات التي ذكرت أسماء الله في قوله تعالى: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" الحشر : 22-24.
"سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى" الأعلى : 1.

والآيات في هذا الباب كثيرة كما ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة. في أحاديث صحيحة - وهو أعرف الناس بذات الله عز وجل - منها "الله تسعه وتسعون اسماء، مائة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر" وفي رواية أخرى "من أحصاها"، ورواه الترمذى وزاد "هو الله الذى لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبر، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيد، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباущ، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتنين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعید، المحىي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعال، البر التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقطسط، الجامع، الغنى، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهدى، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور"

وهذه الصفات التسعة والتسعون، ليست كل ما ورد في أسماء الله تبارك وتعالى، بل نجد الأحاديث التي تزيد على هذه الصفات. في رواية أخرى للحديث السابق: "الحنان، المنان، البديع"، وورد من كذلك من أسمائه تعالى: "المغيث، الكفيل، ذو الطول، ذو المعارج، ذو الفضل، الخلاق"

قال أبو بكر بن العربي في شرح الترمذى، حاكيا عن بعض أهل العلم: إنه جمع من الكتاب والسنة من أسمائه تعالى ألف اسم، وفي كلام صاحب القصد مجرد ما يفيد ذلك، وأشار الشوكاني إلى ذلك تحفة الذاكرين، ثم قال: وأنهض ما ورد في إحصائها الحديث المذكور، وفيه الكفاية، وعلى اعتبار أن كل اسم من أسماء ذاته القدسية، إنما يدل على صفة من صفاته تعالى ويعبر عنها، فإن كل اسم من هذه الأسماء: إما أن يدل على صفة كمال، أو على صفة وجود، أو على صفة سلب، أو على صفة فعل، ومرجع هذه الصفات كلها وهذه الأسماء إلى الثلاث عشرة

صفة، المذكورة في الفقرة السابقة، فإليها ترجع صفات الفعل، والسلب، والكمال، والوجود، والمعاني.

ومرة ثانية نحب أن نؤكد، أن الخالق غير المخلوق، وأن الله لا يشبه خلقه في شيء: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير". وأن من أسس ضلال البشر في باب الاعتقاد، اعتقاد مشابهة الله لخلق، وقد رد الله في القرآن على أي تصور من هذه التصورات؛ فمثلاً زعم اليهود أن الله خلق الخلق، واستراح في اليوم السابع بعد ستة أيام خلق – وهذا نوع تشبيه – فرد الله عليهم بقوله: "ولَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِنَةٍ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ" ق : 38. أي تعب ، ورد على النصارى اعتبارهم أن الله مؤلف من أجزاء، وأن من عباده من هو جزء منه، فقال: "وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ" الزخرف : 15. فالمسلم يثبت لله ما أثبته لذاته من صفات وأسماء، وينزه الله عز وجل بما نزعه به نفسه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: "سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" المؤمنون : 91. "سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخَلَّصِينَ الصافات : 159-160. فالله تعالى موجود وجوده ليس كمثله شيء، وبصير وبصره ليس كمثله شيء، وسميع وسمعه ليس كمثله شيء، وهكذا في كل صفة لله عز وجل، وإنما نعرف الله عز وجل بالعقل وبما عرفنا هو جل جلاله على ذاته وصفاته وأسمائه بكتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وكتاب الله لا ينافق بعضه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تناقض الكتاب، بل كلامها يفسر الآخر، وكل منها يفسر بعضه، وإنما نعرف الله بمجموع ما ورد فيهما، دون أن نفهم فيما نجعل كتاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يتناقضان بعضهما بعضاً.

ولا نحب التكلف في فهم النصوص ولا التعسف، ولا نحب الخوض أصلاً في قضية لها علاقة بالذات الإلهية، إلا بما يفيد الإيمان والتسليم والتزييه، وعقيدتنا لذلك سهلة بسيطة مجمع عليها، لا ينكرها علينا أحد. فالله موجود وجوده ليس كمثله شيء، وسميع وسمعه ليس كمثله شيء، وبصير وبصره ليس كمثله شيء، ومستو على المعنى الذي أراده بالاستواء؛ واستواوه ليس كمثله شيء، ويجيء ومجيء ليس كمثله شيء، و قريب وقربه ليس كمثله شيء، وهكذا في كل اسم أو صفة وصف الله بها ذاته: "وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا" طه : 110 .

هكذا كان أدب الصحابة في هذا الشأن، فلا نتجاوزه إلى غيره.

عن سليمان بن يسار أن رجلا منبني تميم، يقال له صبيغ بن عسل قدم المدينة، وكان عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه، وقد أعد له عراحين النخل فلما دخل عليه قال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، قال عمر وأنا عبد الله عمر وأوّل ما إلىه، فجعل يضربه بتلك العراحين، فما زال يضربه حتى شجه وجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبي يا أمير المؤمنين فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي. الدارمي ونصر والأصبهاني معا في الحجة وابن الأنباري والللاكي.

لقد أدرك عمر ما يترتب على سؤال هذا الرجل من أمور، وهذا واقعنا شاهد على أن الأمة، منذ بحثت هذه الأمور، اختصمت وتفرقت؛ لذلك قال مالك للسائل عن الاستواء: والسؤال عنه بدعة نسأل الله أن يطهر قلوبنا من البدع.

ونحب أن نختم هذا البحث بذكر ملاحظتين: إدحاماً حول ما يذكره بعض الناس عن خواص أسماء الله، الثانية حول اسم الله الأعظم.

1- قضية خواص أسماء الله الحسنى:

يقول الأستاذ البنا: "يذكر البعض أن لكل اسم من أسماء الله تعالى خواصا وأسرارا، تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجازا، وقد يغالى البعض فيتجاوز هذا القدر، إلى زعم أن لكم اسم خادما روحانيا، يخدم من يواكب على الذكر به، وهكذا، والذي أعلمك في هذا _ وفوق كل ذي علم عليم _ أن أسماء الله تعالى ألفاظ مشرفة، لها فضل على سائر الكلام، وفيها بركة وفي ذكرها ثواب عظيم، وأن الإنسان إذا واطب على ذكر الله تعالى، طهرت نفسه وصفت روحه، ولا سيما إذا كان ذكره بحضور قلب وفهم المعنى، أما ما زاد على ذلك فلم يرد في كتاب ولا سنة. وقد نهينا عن الغلو في الدين، والزيادة فيه، وحسبنا الاقتصار على ما ورد"

2- قضية اسم الله الأعظم:

يقول الأستاذ البنا: "ورد ذكر اسم الله الأعظم في أحاديث كثيرة منها:

1- عن بريدة رضي الله عنه، قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو وهو يقول "اللهم إني أسألك؛ بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. قال: والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم، الذي إذا دعى به

أجاب، وإذا سئل به أعطى" رواه أبو داود والترمذى والنمسائى وابن ماجه وقال المنذري: قال شيخنا أبو الحسن المقدسى: هو إسناد لا مطعن فيه ولا أعلم أنه روى في هذا الباب حديث أجدو إسنادا منه، وقال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث أرجح ما ورد في هذا الباب من حيث السند.

2- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد ورجل قد صلى وهو يدعوه ويقول في دعائه: لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أندرون بم دعا الله؟ دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى" رواه أبو داود والترمذى والنمسائى وابن ماجه.

3- عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: "وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" البقرة : 163 . "الْمُ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُ الْقَيُومُ" آل عمران : 1-2. رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه. وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

4- عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "هل أدلكم على اسم الله الأعظم، الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ الدعوة التي بها يonus، حيث نادى في الظلمات الثلاث: لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين" فقال رسول الله هل كانت ليonus خاصة، أم للمؤمنين عامة؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تسمع قول الله عز وجل: فنجناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين. فأنت ترى من هذه الأحاديث ومن غيرها، أنها لم تعين الاسم الأعظم بالذات، وأن العلماء مختلفون في تعينه، لاختلافهم في ترجيح الأحاديث الشريفة، ومن أقوال الثقات من رجال الملة، أن الاسم الأعظم دعاء نأخذه من هذه الأحاديث الشريفة، إذا دعا به الإنسان، مع توفر شروط الدعاء المطلوبة مركب من عدة أسماء من أسمائه تعالى، إذا دعا به الإنسان، مع توفر شروط الدعاء المطلوبة شرعا، استجاب الله له، وقد صرحت به الأحاديث الشريفة في عدة مواضع. وإذا تقرر هذا، فما يدعيه بعض الناس من أنه سر من الأسرار، يمنح لبعض الأفراد فيفتحون به المغلقات، ويخرقون به العادات، ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس، أمر زائد على ما ورد عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وإذا احتاج هؤلاء البعض بالأية الكريمة وهي قول

الله تعالى: "قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْكَ طَرْفَكَ" النمل : 40. على القول بأن معنى: عنده علم من الكتاب أنه اسم الله الأعظم، تقول لهم: قد صرخ المفسرون بأن ذلك المدعو به كان يا حي يا قيوم. أو الله لا إله إلا هو الحي القيوم. وادعى بعضهم: أنه سرياني، لفظه آهيا شراهيا. وهي دعوى بغير دليل، فلم يخرج الأمر بما ورد في الأحاديث الصحيحة.

وخلصة البحث: إن بعض الناس ولعوا بالمعميات، وادعاء الخصوصيات، والزيادة في المؤثرات، فقالوا ما لم يرد في كتاب ولا سنة، وقد نهينا عن ذلك نهيا شديدا، فلنقف مع المؤثر.

والآن وقد استعرضنا تسع ظواهر كونية، كل ظاهرة تدلنا على الله من وجه، واستعرضنا دلالات الظواهر، وأن كل ظاهرة ذكرناها أم لم نذكرها، تدل على اسم من أسماء الله، وذكرنا لك بعضا مما له علاقة بالأسماء والصفات والذات الإلهية كما وردت في الكتاب والسنة، يبقى أن نقارن بين هذا المفهوم الصحيح عند المسلمين عن الذات الإلهية، والمفاهيم الأخرى الخاطئة عند غيرهم؛ ليتبين أن المسلمين وحدهم عرروا الله حق المعرفة، معرفة قائمة على العلم والعقل والبديهة، لا تجد جانبا من جوانبها فيه مغمس، وذلك آية على أن هذا الإسلام دين الله، وعلى أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرسله الله ليرد الناس عن الباطل في كل شيء إلى الحق في كل شيء.

و قبل أن نبدأ المقارنة نحب أن نلخص بعض ما مر معنا في هذه الفقرة:

1- إن ظواهر هذا الكون، تدل على أسماء الله الحسنى، وأسماؤه تدل على صفاته وصفاته تدلنا على ذاته.

2- مما تدلنا عليه ظواهر الكون، أن الله عز وجل متصف: بالعلم، والإرادة، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والوحدةانية، والبقاء، والأولية، القيومية، والمخالفة للحوادث وأن من أسمائه: المذل والمعز والرزاق والمعطى والمنعم...

3- ونظرة إلى ما وصف الله عز وجل به ذاته، أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم، ترينا انطباقي ما دلتنا عليه الظواهر بدلالة العقل، على ما دلنا عليه النص مع زيادة في النص ترقي بعقولنا إلى منتهى الكمال والأدب، ودين يأخذ بيد العقل في هذا الموضوع إلى مثل هذه الذروة، لا يبقى عند الإنسان شكاً بأنه وحي.

4- وفي كل ما مر، آية على أن المسلم في هذا الموضوع وغيره قد اجتمع له صواب العقل، وصفاء الفهم، وهداية الوحي الذي يأخذ بيد العقل والفهم إلى الطريق السوي.

مقارنات

تحت عنوان العقيدة الإلهية كتب عباس محمود العقاد في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه بحثا، قارن فيه العقيدة الإسلامية في الله جل جلاله بعقيدة غير المسلمين في باب الألوهية، والملحوظ أن المقارنة منصبة على بعض عقائد الفلسفه، وعلى العقائد الدينية في وضعها الذي صارت إليه كما يفهمه أهلها زمن الرسالة الإسلامية، لا كما هي في أصولها عند الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أصحاب هذه الرسالات – إن كانت في الأصل عن رسل – إذ إننا نعتقد أن موسى وعيسى عليهما السلام وكل رسول الله عقيدتهم في الذات الإلهية هي نفسها عقيدة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ كلهم رسول لرب واحد، ولكن هذه العقيدة حرفت وبدلت بعده، كما حرف وبدل غيرها، فأصبحت تحتاج إلى تصحیح، فكانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي هذا التصحیح الكامل، فالانحراف الكامل في تصور الذات الإلهية في العالم كله من ناحية، والتصحیح الكامل لهذا الانحراف من ناحية ثانية، دليل على أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله. ونحن هنا لن ننقل بحث العقاد كله، وإنما سنختار منه، مع ملاحظة أن ما نقله هو كلامه نفسه، وكل تعليق في أسفل الصحيفة من كلامنا، يقول العقاد:

العقيدة الإلهية

العقيدة في الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها. من عرف عقيدة قوم في إلههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجودان، ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر، وتقدر بها الحسنات والسيئات، فلا يهبط دين وعقidته في الإله عالية، ولا يعلو دين وعقidته في الإله هابطة، ليست مما يناسب صفات الموجود الأول الذي تتبعه جميع الموجودات.

ولقد كان النظر في صفات الله، مجال التناقض بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية وأصحاب الحكمة الدينية، وقد كانت مهمة الفلسفة أيسر من مهمة حكماء الأديان، لأن الفيلسوف النظري ينطلق في تفكيره وتقديره غير مقيد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التي يتقيد بها الحكيم الديني، ويتقيد بها من يؤمنون به من أتباعه في الحياة العامة والمعيشة الخاصة، فظهر بين الفلسفه النظريين من سما بالتنزيه الإلهي صعدا إلى أوج لا يلحق به الخيال، فضلا عن الفكر والإحساس.

و جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة في الإله الواحد الأحد صحت فكرة الفلسفة النظرية كما صحت فكرة العقائد الدينية، فكان تصححه لكل من هاتين الفكريتين – في جانب النقص منها – أعظم المعجزات التي أثبتت له في حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحي من عند الله.

يقال على الإجماع: إن صفات الإله قد ارتفعت إلى ذروتها العليا من التزييه والتجريد في مذهب أرسطو الفيلسوف اليوناني الكبير.

والذين يرون هذا الرأي لا ينسون مذهب أفلاطين إمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وشيخ الفلسفة الصوفية بين الغربيين إلى العصر الأخير. غير أنهم لا يذكرونها في معرض الكلام على التزييه في وصف الله؛ لأن مذهب أقرب إلى الغيوبية الصوفية منه إلى التفكير الجلي والمنطق المعقول، وطريقته في التزييه أن يمعن في الزيادة على كل صفة يوصف بها الله، فلا يزال يتخطاها ثم يتخطاها كلما استطاع الزيادة اللغوية، حتى تتقطع الصلة بينها وبين جميع المدلولات المفهومة أو المظونة، ويرجح الأثثرون أن أفلاطين نفسه لم يكن يتصور ما يصوره من تلك الصفات، وإنما كانت غايتها القصوى أن يذهب بالتصور إلى منقطع العجز والإعباء.

فمن ذلك أنه ينكر صفة الوحدانية؛ ليقول بصفة الأحادية، ويقول: إن الواحد غير الأحد؛ لأن الواحد قد يدخل في عدد الاثنين والثلاثة والعشرة، ولا يكون الأحد إلا مفرداً بغير تكرار. ومن ذلك أنه ينكر صفة الوجود، ليقول: إن الله لا يوصف بأنه موجود، تزييها له عن الصفة التي يقابلها – العدم – وتشترك فيها الموجودات أو الموجدات.

لهذا يضربون المثل بأرسطو في تزييه الإله، ولا يضربون المثل بأفلاطين؛ لأن مذهبه ينقطع في صومعة من غيوبة الذهول، لا تمتزج بحياة فكرية ولا بحياة عملية.

ومذهب أرسطو في الإله أنه: كائن أزلبي، مطلق الكمال، لا أول له ولا آخر، ولا عمل له ولا عمل له ولا إرادة. منذ كان العمل طلباً لشيء، والله غني عن كل طلب، وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال، فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح، ولا بين فاضل ومفضول، وليس مما يناسب الإله في رأي أرسطو أن يبتدىء العمل في زمان؛ لأنه أبدي سرمدي لا يطرأ عليه طارئ يدعوه إلى العمل، ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر، ولا جديد ولا قديم، وكل ما

يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التي لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها، ولا تخرج من نطاقها عنية.

فالإله الكامل المطلق الكمال: لا يعنيه أن يخلق العالم، أو يخلق مادته الأولى وهي الهيولي ولكن لهذه الهيولي قابلية للوجود، يخرجها من القوة إلى الفعل شوقياً إلى الوجود الذي يفيض عليها من قبل الإله، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ولا يقال عنها: إنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار. كمال مطلق لا يعمل ولا يريد. أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو وعدم المطلق على حد سواء..

ولنذكر أنه أرسطو صاحب هذا المذهب قبل كل شيء. ولنذكر أنه ذلك العقل الهائل الذي يهابه من يحس قدرته، فلا يتجرأ عليه بالنقد والتسيفه، قبل أن يفرغ جهده في التماس المعذرة له من جهل عصره وقصور الأفكار حوله، لا من جهله هو أو قصور تفكيره؛ فإنه لم يعودنا في تفكيره احتمالاً قط لا يقتصاه إلى (قصره) مداه، ولا يستوفي مقتضياته وموانعه جهد ما في الطاقة الإنسانية من استيفاء.

لنذكر أنه أرسطو؛ لكي نذكر أن هذا العقل النادر، لم يؤت من نقص في تصور الصفات العلوية؛ إلا أنه عاش في زمان، لم تتكشف فيه المعرفة عن خصائص هذه الكائنات الأرضية السفلية التي نحسها ونعيش بينها، ولو أنه عرف ما هو لاصق بها من خصائصها وأعراضها، كان له رأي في الكمال العلوي غير ذلك الرأي الذي ارتآه بمحض الظن والقياس على غير مقياس.

لقد كان يفهم من كمال الكائنات العلوية _ السماوية _ أنها خالدة باقية لا تفنى: لأنها من نور والنور بسيط لا يعرض له الفناء كما يعرض على التركيب.

ولو أن أرسطو عاش حتى علم أن المادة الأرضية _ السفلية _ كلها من نور، وأن عناصر المادة كلها تؤول إلى الذرات والكهارب، وأن هذه الذرات والkeharp تتشق، فتؤول إلى شعاع؛

لما ساقه الظن والقياس إلى ذلك الخطأ في التفرقة بين لوازم البقاء ولوازم الفناء أو بين خصائص البساطة وخصائص التركيب.

ولعل إدراكه لذلك الخطأ في فهم لوازم البساطة والكمال، ولوازم البقاء والفناء، كان خليقاً أن يهديه إلى فهم خطئه في تصور لوازم الكمال الإلهي، فلا يمتنع في عقله أن يجتمع الكمال الواحد من صفات عدة كالصفات الحسنى التي وصف بها الإله في الإسلام، ومنها الرحمة والكرم والقدرة والفعل والإرادة، ولا يمتنع في عقله أن يكون لهذه الصفات لوازماً لها ومقتضياتها، إذ لا تكون قدرة بغير مقدور عليه، ولا يكون كرم بغير إعطاء، ولا تكون مشيئة بغير اختيار بين أمرين، وإذا اختار الله أمراً فهو لا يختاره لذاته سبحانه وتعالى، بل يختاره لمخلوقاته التي تجوز عليها حالات شتى لا تجوز في حق الإله، وإذا خلق الله شيئاً في الزمان فلا نظر إلى الأبدية الإلهية بل ينبغي أن ننظر إلى الشيء الموجود المخلوق في زمانه، ثم لا مانع عقلاً من أن تتعلق به إرادة الله الأبدية على أن يكون حيث كان في زمن من الأزمان.

لقد كان مفهوم البساطة الأبدية الباقية عند أرسطو، غير مفهومها الذي لمسناه اليوم لمساً في هذه الكائنات الأرضية _ السفلية _ فلا جرم يكون مفهوم الكمال المطلق عندنا، غير مفهومه الذي جعله أرسطو أشبه شيء بالعدم المطلق وغير عامل ولا مرید ولا عالم بسوى النعمة والسعادة .. فانع بأنه منعم سعيد.

وعلى هذا يبقى لنا أن نسأل: هل استطاع أرسطو بتجريده الفلسفى أن يسمى بالكمال الأعلى فوق مرتبته التي يستنتم إليها المسلم من عقيدة دينه؟
تقول عن يقين: كلا؛ فإن الله في الإسلام إله صمد لا أول له ولا آخر، وله المثل الأعلى، فليس كمثله شيء، وهو محيط بكل شيء.

ثم يبقى بعد ذلك أن نسأل: هل تغض العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفية في مذهب التزييه؟
والجواب: كلا، بل الدين هنا فلسفة أصلح من الفلسفة إذا قيست بالقياس الفلسفى الصحيح؛ لأن صفات الإله التي تعددت في عقيدة الإسلام لا تدعو نفياً للنفائض التي لا تجوز في حق الإله، وليس تعدد النفائض مما يقضى بتعدد الكمال المطلق الذي ينفرد ولا يتعدد. فإن الكمال المطلق واحد، والنفائض كثيرة ينفيها جميعاً ذلك الكمال الواحد وما يؤمن بـأن الله عظيم قادر فعال لما

يريد كريم رحيم، إلا إيماناً بأنه جل وعلا قد تترى عن نفائص الجهل والعجز والجحد والغشم، فهو كامل منزه عن جميع النفائص، ومقتضى قدرته أن يعلم ويخلق، ويريد لخلقه ما يشاء، ومقتضى عمله وخلقه أن يتترى عن تلك العزلة السعيدة التي توهمها أرسطو مخطئاً في التجريد والتزييه، فهو سعيد بنعمة كماله، سعيد بنعمة عطائه، كفايته لذاته العالية لا تأبه له أن يفيض على الخلق كفايتهم من الوجود في الزمان، أي من ذلك الوجود المحدود الذي لا يغض من وجود الله في الأبد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل.

ومن صفات الله في الإسلام، ما يعتبر ردًا على فكرة الله في الفلسفة الأرسطية، كما يعتبر ردًا على أصحاب التأويل في الأديان الكتابية وغير الكتابية.

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها، ويترى عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه، والله كمال لا يطلب شيئاً غير ذاته، ويجل عن علم الكليات والجزئيات، لأنه يحسبها من علم العقول البشرية، ولا يعني بالخلق رحمة ولا قسوة. لأن الخلق أخرى أن يطلب الكمال بالسعى إليه. ولكن الله في الإسلام عالم الغيب والشهادة.

قال تعالى: "وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مُّتَّقَلٍ ذَرَّةٍ" يونس : 61.
"وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" يس : 79.

"وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ" المؤمنون : 17.
"وَسَعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" الأعراف : 89.
"إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ" الأعراف : 54.

"عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" الماك : 13.
وهو كذلك مريد وفعال لما يريد.

قال تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٍ" المائدة : 63.

وفي هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات، كما جاء في أقوال بعض المفسرين، ولكنها ترد على كل من يغلون إرادة الله على وجه من الوجه، ولا يبعد أن يكون في يهود الجزيرة من يشير إلى روایات الفلسفة الأرسطية بذلك المقال.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة فجاء فيه من: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" الحج : 16.

وأشار إلى الدهر بين فجاء في سورة الأنعام: "وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" الأنعام : 29.

وجاء في سورة الجاثية: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُونَ" الجاثية : 24.

فكانـت فـكرة الله في الإسلام، هي الفـكرة المـتمـمة لأـفـكار كـثـيرـة مـوزـعـة في هـذـه العـقـائـد الـديـنيـة وـفي المـذاـهـب الـفـلـسـفـيـة الـتـي تـدور عـلـيـها؛ وـلـهـذا بـلـغـت الـمـثـل الـأـعـلـى في صـفـات الـذـات الإـلهـيـة، وـتـضـمـنـت تصـحـيـحا لـضـمـائـر وـتـصـحـيـحا لـعـقـول في تـقـرـير ما يـنـبـغـي لـكـمال الله بـقـسـطـاس الإـيمـان وـقـسـطـاس النـظر وـالـقـيـاس.

ومن ثم كان فـكر الإنسان من وـسـائـل الـوصـول إـلـى مـعـرـفـة الله في الإسلام، وإن كانت الـهـدـاـيـة كـلـها من الله.

ومـجمـلـ ما يـقـالـ عنـ عـقـيـدة الـذـات الإـلهـيـة الـتـي جـاءـ بـهـاـ الإـسلامـ: أـنـ الـذـاتـ الإـلهـيـةـ غـاـيـةـ ما يـتـصـورـهـ الـعـقـلـ الـبـشـريـ منـ الـكـمالـ فـالـعـقـلـ لاـ يـتـصـورـ لـلـوـجـودـ الـدـائـمـ وـالـوـجـودـ الـفـانـيـ صـورـةـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـفـهـمـ منـ مـسـأـلةـ الـبـقـاءـ وـالـفـنـاءـ. فـالـعـقـلـ لـاـ يـتـصـورـ لـلـوـجـودـ الـدـائـمـ وـالـوـجـودـ الـفـانـيـ صـورـةـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـفـهـمـ منـ صـورـتـيهـماـ فـيـ الـعـقـيـدةـ الإـسـلامـيـةـ، لـأـنـ الـعـقـلـ لـاـ يـتـصـورـ وـجـودـينـ سـرـمـدـيـنـ، كـلـاهـماـ غـيـرـ مـخـلـوقـ،ـ أحـدـهـماـ مجـرـدـ وـالـآـخـرـ مـادـةـ، وـهـذـاـ وـذـاكـ لـيـسـ لـهـماـ اـبـتـدـاءـ وـلـيـسـ لـهـاـ اـنـتـهـاءـ.ـ وـلـكـنـهـ يـتـصـورـ وـجـودـاـ أـبـدـيـاـ يـخـلـقـ وـجـودـاـ زـمـانـيـاـ.ـ وـقـدـيـماـ قـالـ أـفـلاـطـونـ وـأـصـابـ فـيـماـ قـالـ: إـنـ الزـمـانـ لـيـسـ مـحـاكـاـةـ لـلـأـبـدـ.ـ لـأـنـهـ مـخـلـوقـ وـالـأـبـدـ غـيـرـ مـخـلـوقـ.

بقاء المخلوقات بقاء في الزمن، وبقاء الخالق بقاء أبيدي سرمدي لا يحده الماضي والحاضر والمستقبل، لأنها كلها من حدود الحركة والانتقال في تصور أبناء الفناء، ولا تجوز في حق الخالق السرمدي حركة ولا انتقال.

فallah هو : "الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ" الفرقان : 57.

"وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ" المؤمنون : 80.

و"كُلُّ شَيْءٍ هَالَّكُ إِلَّا وَجْهُهُ" القصص : 88.

وأيا كان المرتلى الذى ارتفع إليه تزييه الفكرة الإلهية فى مذهب أرسسطو كما شرحناه بعض الشرح، أو مذهب أستاذة أفلاطون كما أؤمنا إليه بعض الإيماء، فهذا التزييه الفلسفى كاد أن يكون خيالاً جامحاً بالنسبة إلى العقائد الإلهية التي كانت فاشية بين الكهان والمتعبدين من أبناء اليونان.

فلا شك أن صورة جوبىتر رب الأرباب عندهم، كانت أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنزهين، ولو لم يبلغ وصف التزييه عندهم نصباً ملحوظاً من الكمال. كان جوبىتر حقوداً لدوا، مشغولاً بشهوات الطعام والغرام، لا يبالى من شؤون الأرباب والمخلوقات إلا ما يعنيه على حفظ سلطانه والتماذى في طغيانه، وكان يغضب على أسلوباته، لأنه يداوى المرضى فيحرمه جباهية الضربيه على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية، وكان يغضب على بروميثيوس إله المعرفة والصناعة، لأنه يعلم الإنسان أن يستخدم النار في الصناعة، وأن يتخد من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم فلم يقنع بمorte ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة، بل تفنن في اختراع ألوان العذاب له، فقيده إلى جبل سحيق، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار، حتى إذا جن الليل عادت سليمة في بدنـه، لتعود الجوارح على نهشـها بعد مطلع الشمس ... ولا يزال هكذا دواـياـك في العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوضـ الدعـاء. ومما رواهـ الشاعـر الفيلسوف هزـيـود عن علة غضـبـ الإـلهـ علىـ بـرـومـثـيـوسـ أنهـ قـسـمـ لهـ نـصـيبـهـ منـ الطـعـامـ فيـ ولـيـمةـ الأـربـابـ، فـأـكـثـرـ فـيـهـ مـنـ العـظـامـ، وـأـقـلـ فـيـهـ مـنـ الـلـحـومـ الشـحـومـ، فـأـعـتـقـدـ جـوـبـىـترـ أنهـ يـتـعـالـمـ عـلـيـهـ بـعـرـفـتـهـ وـفـطـنـتـهـ، لأنـهـ اـشـتـهـرـ بـيـنـ الـآـلـهـ بـعـرـفـةـ وـافـرـةـ وـفـطـنـةـ نـافـذـةـ، لمـ يـشـتـهـرـ بهاـ إـلـهـ الـكـبـيرـ، ولاـ يـغـيـبـ عـنـاـ وـنـحـنـ نـرـوـيـ أـخـبـارـ إـلـهـ الـكـبـيرـ مـنـقـولـةـ عـنـ هـزـيـودـ أـنـ هـذـاـ الشـاعـرـ الفـيـلـسـوـفـ، قدـ

اجتهد قصارى اجتهاده في تزييه جوبيتز وتصويره للناس في صورة من القدسية والعظمة، تناسب صورة الإله المعبد بعد ارتقاء العبادة شيئاً ما في ديانة اليونان الأقدمين.

ومما رواه الرواة المختلفون عن جوبيتز أنه كان يخادع زوجته هيرة ويرسل إله الغمام لمداراة الشمس في مطلعها، حذرا من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار، ومفاجأته بين عشيقاته على عرش الأولمب.. وحدث مرة أنها فاجأته وهو يقبل ساقيه جانمييد راعي الضأن الجميل الذي لمحه في الخلاء، فاختطفه وصعد به إلى السماء. فلم يتصل جوبيتز من تهمة الشغف بساقيه، ومضى يسونغ مسلكه لزوجته بما جعلته من لذة الجمع بين رحىق الكأس ورحيق الشفاه.

ومثل الأمم القديمة كمثل اليونان في بعد الفارق بين صورة الإله في حكمة الفلسفه، وبين صورته في شعائر الكهان والمتعبدين.

فالهند القديمة كانت تطوى هيأكلها ومعابدها على طوائف من الأرباب: منها ما يلحق بالحيوان وعناصر الطبيعة، ومنها ما يلحق بالأوثان والأنصاب، وكثير منها يتطلب من سدنته أن يتقربوا إليه بالبغاء المقدس وسفك الدماء.

وقد انتهت هذه الأرباب المتعددة إلى الثالوث الأبدى الذى اشتمل على ثلات من الصور الإلهية، هي الإله براهما في صورة الخالق، والإله فشنو في صورة الحافظ، والإله سيفا في صورة الهادم. فجعلوا الهم وفساد من عمل الإله الأعلى الذى يتولاه حين يتشكل لعباده من تلك الصورة. وزادوا على ذلك أنهم جعلوا لكل إله قرينا يسمونه الشاكتي أو الزوجة أو الصاحبة ينسبون إليها من الشرور ما ينزعون عنه قرينهما أو صاحبها.

فهذه الأرباب صور لا تبتعد المسافة بينها وبين صور الشياطين والعفاريت والأرواح الخبيثة المعهودة في أقدم الديانات، فإذا ارتفعنا في معارج التزييه والتجريد بلغنا منها ذروتها العليا في صورتين مختلفتين: إحداهما صورة الكارما والصورة الأخرى الترفانا وكلتاهم تحسب من قبيل المعاني الذهنية، وقل أن توصف بوصف الذات الإلهية. فالكارما هي القدر الغالب على جميع

الموجودات ومنها الآلهة وأفلاك السماء، وهذا القدر هو في الواقع حالة من الحالات العامة، يمكن أن نعبر عنها بأنها هي ما ينبغي أو هي الوضع الحاصل على النحو الأمثل، فليس القدر المسمى بالكارما عندهم ذاتاً إلهية معروفة الصفات، ولكنه مرادف لكلمة الإلتباس أو كلمة الواجب كما وجب في الحوادث وال الموجودات.

والنرفانا حالة عامة كحالة الكارما، إلا أنها إلى العدم أقرب منها إلى الوجود، لأنها الحالة التي تنتهي إليها جميع الأرواح حين تفرغ من عناء الوجود، وتتجدد من شواغل الأجساد وشواغل الأرواح على السواء، وتتساوى أرواح الآلة وأرواح البشر في حالة النرفانا هذه، كلما سعدت بنعمة الخلود غير محسوس ولا مشهود.

ولسنا نريد في هذه الصفحات القليلة، أن نتبع صورة الإلهية والربوبية كافة بين أمم الحضارات الأولى، وإنما نجترئ منها بالنماذج الدالة عليها فيما ارتفت إليه من التزيه، وفيما هبطت إليه من التجسيم أو التشبيه أو التشويه، ولهذا يغنينا عن الاسترسال في شرح عادات الأقدمين أن نضيف إلى ما تقدم مثلاً آخر يتمثلة اليونان والهند، وذلك هو مثل الديانة المصرية القديمة من أبعد عهود الفراعنة إلى عهد الديانات الكتابية، وهي أي الديانة المصرية القديمة أرفع الديانات فيما نعلم ترقياً إلى ذروة التوحيد والتزيه، وإن كانت في عبادتها الشائعة تهبط أحياناً إلى مهبط الديانات الغابرة من عبادة الطواطم والأنصاب، وعباداة الأرواح الخبيثة والشياطين. بلغت ديانة مصر القديمة ذروتها العليا من التوحيد والتزيه في ديانة آتون التي بشر بها الفرعون المنسوب إليه إخناتون.

ويؤخذ من صلوات إخناتون المحفوظة بين أيدينا، أنه كان يصلى إلى خالق واحد، يكاد يقترب في صفاته من الإله الخالق الذي يلي له العارفون من أتباع الديانات الكتابية، لو لا شائبة من العبادة الوثنية علقت به من عبادة الشمس، فكانت هذه الشمس الدنيوية رمزاً ومرادفاً لاسمها في معظم الصلوات.

هذه الشواهد من التاريخ القديم، شواهد تمثيل لا شواهد حصر وتصصيل، وهي مغنية في الدلالة على المدى الذي وصل إليه تزييه الفكرة الإلهية في أمم التاريخ القديم جميعها، لأنها تدل على

ما وصلت إليه الفكرة الإلهية المنزهة في أرفع الحضارات الأولى، وهي الحضارة المصرية والحضارة الهندية والحضارة اليونانية.

وجملة الملاحظات على تنزيه الفكرة الإلهية عند الأقدمين، أنه كان تنزيهاً خاصاً مقصوراً على الفئة القليلة من المفكرين والمطلعين على صفوة الأسرار الدينية.

ثم يلاحظ عليه بعد ذلك؛ أنه تنزيه لم يسلم في كل آن من ضعف يعييه عقلًا، ويجعله غير صالح للأخذ به في ديانات الجماعة على الخصوص.

وفي الديانة المصرية، لم تسلم فكرة التوحيد من شائبة الوثنية، ولم تزل عبادة الشمس ظاهرة الأثر في عبادة آتون.

وديانة الهند لم تعلم الناس الإيمان بذات الإلهية معروفة الصفات، وليس في معبداتها أشرف من الكارما والنرفانا، وهو ما بالمعنى الذهني أشبه منها بالكائنات الحية، وإدحافها وهي النرفانا إلى الفناء أقرب منها إلى البقاء.

والتنزيه الفلسفى الذى ارتفت إليه حكمت اليونان فى مذهب أرسطو، يكاد يلحق الكمال المطلق بالعدم المطلق، ويخرج لنا صورة للإله لا تصلح للإيمان بها ولا للاقتناع بها على هدى من الفهم الصحيح.

وكل أولئك لا يبلغ بالتنزيه الإلهي مبلغه الذى جاءت به الديانة الإسلامية، صالحاً للإيمان به في العقيدة الدينية وصالحاً للأخذ به في مذاهب التفكير.

والديانة الإسلامية كما هو معلوم ثالثة الديانات المشهورة باسم الديانات الكتابية مكانها في علم المقارنة بين الأديان مرتبطة بمكان الديانتين الآخريتين وهما الموسوية والمسيحية، وتجري المقارنة بين الإسلام وبينهما فعلاً في كتابات الغربيين، فلا يتورع أكثرهم من حسبان الإسلام نسخة مشوهة أو محرفة من المسيحية أو الموسوية.

والمسألة بعد مسألة نصوص محفوظة وشعائر ملحوظة، لا تحتمل الجدل الطويل في ميزان النقد والمقارنة؛ وإن احتملته في مجال الدعوة والخصومة العصبية ، ولا حاجة في المقارنة بين هذه الديانات إلى أكثر من ذكر العقيدة الإلهية في كل منها المعلم الصحيح بمكانها من التزيء في حكم الدين وحكم المعرفة النظرية.

إن المراجع التي تلقينا منها عقائد العربين كما يدين بها أتباع الموسوية إلى يومنا هذا، مبوطة بين أيدي جميع القادرین على مطالعتها في لغاتها الأصلية أو لغاتها المترجمة، وأشهرها التوراة والتلمود. فصورة الإله في هذه المراجع من أوائلها إلى أواخرها هي صورة يهوا الله شعب إسرائيل.

وقد وصفوه في كتبهم المقدسة، قالوا عنه مرة: إنه يحب ريح الشواء، قالوا عنه مرة أخرى: إنه يتمشى في ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها، قالوا عنه غير هذا وذاك. إنه يصارع عباده ويصارعونه، وإنه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده، وغيروا ردها من الدهر وهم يسونون بينه وبين عازيل شيطان البرية، فيتقربون إليه بذبيحة، ويتقربون إلى الشيطان بذبيحة مثلاً.

وحمد العربين على عقידتهم الإلهية، فظل يهوا الله عربياً، يستأثر به أبناء يعقوب ابن إسحاق، ولا يرجو الخلاص بمعونة منه إلا الذين يدينون بالولاء لعرش داود وذريته من بعده، فلم يتغير هذا الاعتقاد بين العربين قبل عصر الميلاد المسيحي، ولم يأت التغيير فيه من قبل أبناء إسرائيل المحافظين على عقידتهم الأولى؛ بل أتى هذا التغيير من قبل المصلحين المجددين في الدين اليهودي، وقام به من بينهم رسول مغضوب عليه في شرعاهم منهم بالمروق من زمرتهم، وهو عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلم.

وابتدأ عيسى بن مريم دعوته الأول مختصاً بها بني إسرائيل دون سواهم من العالمين، وذكرت لنا الأنجليل تفصيل الحوار الذي دار بين المسيح وبين المرأة الكنعانية التي توسلت إليه أن يخرج الشيطان من ابنتها، فروى إنجيل مرقص في الإصلاح السابع:

(أن امرأة بابنتها روح نجس، سمعت به، فأتت وخرت عند قدميه، وكانت المرأة أممية أي من أبناء الأمم غير الإسرائيليّة وفي جنسها فينيقية سورية، فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها، وأما يسوع، فقال لها: دعي البنين أولاً يشبعون؛ لأنّه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح الكلاب، فأجابت وقالت له: نعم يا سيد، والكلاب أيضاً تحت المائدة تأكل من فتات البنين، فقال لها: لأجل هذه الكلمة، اذهبي قد خرج الشيطان من ابنتك)

ورواية متى لهذه القصة تشبه رواية مرقص حيث جاء في الإصحاح الخامس عشر من الإنجيل المنسوب إليه:

إن السيد المسيح (خرج من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيادة، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا ابن داود. ابنتي مجنونة جداً. فلم يجيبها بكلمة. فتقدم تلاميذ وطلبوه إليه قائلين: اصرفها لأنّها تصيح وراءنا، فأجاب وقال: لم أرسل إلى إلا خرافبني إسرائيل الضالة، فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد أعني. فأجاب وقال: ليس حسن أن يؤخذ خبز البنين ويطرح الكلاب، فقالت: نعم يا سيد. والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها، حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة. عظيم إيمانك، لكن لك كما تريدين. فشفيت ابنتها من تلك الساعة)

ونحن نعلم من هذه القصة ومن جملة أخبار التلاميذ في الإنجيل، أن السيد المسيح قد ثابر على اختصاصبني إسرائيل بدعوته، ولم يتحول عنهم إلى غيرهم إلا بعد إصرارهم على رفضه ولجاجتهم في إنكار رسالته، فوجد بعد اليأس منهم أنه في حل من صرف الدعوة عنهم إلى الأمم المقيمة بينهم، وضرب المثل لذلك بصاحب الدار الذي أقام وليمة العرس في داره، وأرسل الدعوة إلى ذويه وجيرانه، فتعللو بالمعاذير والشواغل ولم يستجيبوا لدعوته، غير معرفة بهم ولا صلة بينه وبينهم، حتى امتلأت بهم الدار ولم يبق على الموائد مكان لمن اختصهم بالدعوة فأعرضوا عنها.

ويلاحظ في قصة المرأة الكنعانية أنها كانت تدعو المسيح بالسيد ابن داود، وأن عقيدة العبريين لم تزل آمالهم بالخلاص على يد رسول من ذرية داود ومن سلالة يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم.

ومضى عصر المسيح، وجاء بعده عصر بولس الرسول، وعقيدة الخلاص الموقوف على سلاله إبراهيم الخليل باقية مسلمة بين العربين الجامدين على تقاليدهم وبين المسيحيين المتحررين من تلك التقاليد، وإنما أضيف إليها تفسير جديد لهذه البنوة، وهو أنها بنوة روحية لا تتوقف على بنوة الجسد، ولا فارق فيها بين من يحيون سنة إبراهيم الخليل من العربين أو من الأميين الذين يسميهم العربين بالجوبيين. أي القوم الغرباء.

فالعقيدة الإلهية كما دان بها العربون وجدوا عليها إلى عصر الميلاد؛ إنما هي عقيدة شعب مختار بين الشعوب في إله مختار بين الآلهة، وليس في هذه العقيدة إيمان بالتوحيد، ولا هي مما يتسع لديانة إنسانية، أو مما يصح أن يحسبه الباحث المنصف مقدمة للإيمان بالإله الذي يدعوا إليه الإسلام.

ثم تطورت هذه العقيدة الإلهية بعد ظهور المسيحية، فانتقلت من الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم في الجسد، إلى الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم في الروح، وانقضى عصر السيد المسيح وعصر بولس الرسول، واتصلت المسيحية بالأمم الأجنبية وفي مقدمتها الأمة المصرية، فشاعت فيها على أثر ذلك عقيدة إلهية جديدة في مذهب العربين؛ وهي عقيدة الثالوث المجتمع من الأب والابن والروح القدس، وفحواها: أن المسيح المخلص هو ابن الله، وأن الله أرسله فداء لأبناء آدم وحواء، وكفاره عن الخطيئة التي وقعا فيها عندما أكلوا من شجرة المعرفة في الجنة بعد أن نهاهما عن الاقتراب منها.

وظهر الإسلام وفهوى العقيدة الإلهية كما تطورت بها الديانة المسيحية: أن الله الإله واحد من أقانيم ثلاثة هي: الأب والروح القدس والابن، وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم، وهو ذو طبيعة إلهية واحدة في مذهب فريق من المسيحيين، وذو طبيعتين إلهية وإنسانية في مذهب فريق آخر.

ومن البديهي أن الباحث الذي يريد تطبيق علم المقارنة بين الأديان على المسيحية والإسلام، مطالب بالرجوع إلى حالة الديانة المسيحية حيث ظهرت دعوة الإسلام في الجزيرة العربية، فلا يجوز لأحد من هؤلاء الباحثين، أن يزعم أن الإسلام نسخة محرفة من المسيحية؛ إلا إذا اعتقد

أن نبی الإسلام قد أخذ من المسيحية كما عرفها في بيئته العربية، وفيما اتصل به من البيئات الأخرى حول جزيرة العرب. ومهما يكن من تطور العقائد المسيحية فيسائر البيئات و مختلف العصور، فالعقيدة المسيحية التي يجوز لصاحب المقارنة بين الأديان أن يجعلها قدوة للإسلام، إنما هي عقيدة المسيحيين في الجزيرة العربية وما حولها، وقد وصف جورج سيل مترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية حالة المسيحيين في الحجاز وفيسائر الأنحاء القريبة منه، فقال ما نقله من ترجمة مقدمته للقرآن:

(إنه من المحقق أن ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واحتلال الأحوال في صدر المائة الثالثة للميلاد، قد اضطر كثيرين من أنصارها أن يلجأوا إلى بلاد العرب طلباً للحرية، وكان معظمهم يعاقبه، فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة. وأهم القبائل التي تنصرت: حمير وغسان وربيعة وتغلب، وبهراء، وتتوخ، وبعض طيء، وقضاء، وأهل نجران، والحيرة.. ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد أنه كان للنصارى أساقفة في مواضع جمة، لتنظم بهم سياسة الكنائس، وقد تقدم ذكر أسقف ظفار، وقال بعضهم: كانت نجران مقام أسقف، وكان لليعقوبة أسقفاً؛ يدعى أحدهما: أسقف العرب بإطلاق اللفظ، وكان مقامه باكولة وهي الكوفة عند ابن العبري، أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبي الفداء وثانيهما يدعى: أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة. أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم)

(أما الكنيسة الشرقية، فإنها أصبحت بعد انفلاط المجمع النيقاوی مرتبة بمناقشات لا تکاد تتقضی، وانقض حبلها بمحاکاة الأریوسین والنساطرة والیعقوبیة وغيرهم من أهل البدع. على أن الذي ثبت بعد البحث أن كلاما من بدعتي النساطرة والیعقوبیة، كانت بأن تدعى اختلافا في التعبير عن المعتقد، أولى من أن تدعى اختلافا في المعتقد نفسه، وبأن تدعى حجة يتغلب بها كل من المتظاريين على الآخر، أولى من أن تدعى سببا موجبا لالئام مجامعا عدیدة، يت Rudd إلیها جماعة القساوسة والأساقفة، ويتماکون، ليعلی كل واحد منهم کلمته، ويحیل القضایا إلی هواه. ثم إن نافذی الكلمة منهم وأصحاب المكانة في قصر الملك، كان كل واحد منهم يختص نفراً من قواد الجيش. أو من أصحاب الخطب، يكون له عليهم الولاء ويتقوی بهم، وبذلك صارت المناصب تتال بالرshi، و النصفة تتبع وتشتري جهارا. أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من

تهالك دماسوس وأرسكينوس، في المشاجنة على منصة الأسقفية _ أي أسقفية روما _ ما أفضى إلى احتدام نار الفتنة، وسفاك الدماء بين حزبيهما. وكان أكثر ما تتشاء المناقشات من القياصرة أنفسهم، ولا سيما القيصر قسطنطينوس، فإنه إذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحي وخرافات العجائز، رب الدين بكثير من المسائل الخلافية. هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب. أما في بلاد هذه الأمة التي هي موضوع بحثنا، فلم تكن خيراً من ذلك. فكان كفي نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتنتشر معه في اليوم الآخر، وقيل إن أوربيجانوس هو الذي دس فيهم هذا المذهب، وكم وكم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها!! فمن ذلك بدعة كان أصحابها بألوهية العذراء مريم، ويعبدونها كأنما هي الله، ويقربون لها أقراصها مضفورة من الرقاق يقال لها: كليرس، وبها سمي أصحاب هذه البدع كليرين. وفضلاً عن ذلك، فقد اجتمع أيضاً في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء، لجأوا إليها هرباً من اضطهاد القياصرة)

كانت عقائد الفرق المسيحية في جزيرة العرب، وفي العالم المترامي حول جزيرة العرب، على هذا النحو الذي وصفه رجل متغصب على الإسلام، لا يتهم بمحاباته، ولا يظن به أنه يتغافل على المسيحية وهو قادر على مداراتها، ومن الواضح البين أن عقائد الفرق المسيحية على ذلك النحو، لم تكن مما يغرى بالإعجاب، أو مما يدعو إلى الإقتداء. ومن الواضح البين أن موقف الإسلام، كان موقف المصحح المتمم، ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية. فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك، منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب، منزه عن التشبيه الذي تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية.

"فَاللَّهُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالْمُسْلِمِينَ، إِلَهٌ وَاحِدٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرْكَاءُ، وَسَبَّحَنَهُ عَمَّا يَشْرَكُونَ" وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة، ولكنه هو رب العالمين خلق الناس جميعاً ليتعارفوا ويتقاولوا بالتقوى، فلا فضل بينهم لعربي على أعجمي، ولا لقرشي على حبشي، إلا بالتقوى.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَّأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِيلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاءِكُمْ" الحجرات : 13

وهو واحد أحد: "لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوَلَّْ" ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ" الإخلاص : 3-4

لا يأخذ إنساناً بذنب إنسان، ولا يحاسب أمة خافت بجريرة أمة سافت، و لا يدين العالم كله بغير نذير.

"وَلَا تَزِرُّ وَازِرَةٌ وَزِرْ أَخْرَى" الزمر : 7

"إِنَّلِكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبَتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" البقرة : 134

"وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا" الإسراء : 15

ودينه دين الرحمة والعدل، تفتتح كل سورة من كتابه باسم الله الرحمن الرحيم
"وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ" فصلت : 46

"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ" الحديد : 3

"وَسَعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" الأنعام : 80

"وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" يس : 79

وللباحث في مقارنات الأديان؛ أن يقول ما يشاء عن هذا الإله الواحد الأحد، رب العالمين، رب المشرقيين والمغاربيين، إلا أن يقول: إنه نسخ مستمد من عقائد عرب الجاهلية، أو عقائد الفرق الكتابية التي خالطة عقائد الجاهليين على النحو الذي وصفه جورج سيل في مقدمته لترجمة القرآن الكريم، فإن العقيدة الإلهية التي تستمد من تراث الجاهليين؛ لن تكون لها صبغة أغلب من صبغة العصبية، ولا مفخرة أظهر من مفاخر الأحساب، ولن تخلو من لوثة الشرك، ولا من عقابيل العبادات التي امتلأت بالخائث، وحلت فيها الرقى والتعاويذ محل الشعائر والصلوات.

ومعجزة المعجزات؛ أن الإسلام لم يكن كذلك، بل كان نقىض ذلك في صراحة حاسمة جازمة، لا تأذن بالهواة ولا بالمساومة، فما من خلة كانت أبغض إليه من خلة العصبية الجاهلية، والمفاحرة الجاهلية، والتحارج الجاهلي على فوارق الأنساب والأحزاب.

فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذي ينكر العصبية.
ومن جوف بلاد القبائل والعشائر، خرج الدين الذي يدعوا إلى الله واحد رب العالمين. ورب المشرق والمغرب، ورب الأمم الإنسانية جماء، بغير فارق بينها؛ غير فارق الصلاح والإيمان.

على أن الباحثين الذين يصطنعون سمت العلم من علماء المقارنة بين الأديان في الغرب يطلقون نعوتهم على الإسلام سمعاً _ فيما يظهر _ من مقرراتهم أو من مكرراتهم التقليدية التي لا يبدو منها أنهم كلفوا عقولهم جداً وقحاً، أن نلم إلماً واحدة بهذا الدين في جملة أو تفصيل.

ففي كتاب من أحدث الكتب عن أديان بني الإنسان، ألفه أستاذ للفلسفة في جامعة كبيرة، يقول المؤلف المتخصص لهذه الدراسات _ بعد الإشارة إلى السيف والعنف والاقتباس من النصرانية والصائبية والمجوسية _ :
(إن محمداً أسبغ على الله _ ربه _ ثوباً من الخلق العربي، والشخصية العربية ...)

ويقول المؤلف:

(إن الحقيقة التي أقررها هنا، تتجلى للباحث كلما تقدم في دراسة هذا الدين العربي وهذه الشخصية الإلهية العربية)

بهذا النعت التقليدي ينعت المؤلف إله الإسلام، بعد أن تقدم في دراسته على حد قوله. فماذا كان عساه قائلاً لو أنه لم يسمع باسم الإسلام إلا على الإشاعة من بعيد؟!

لعله لم يكن بحاجة إلى التقدم وراء البسملة في سورة الفاتحة: ليعلم أن المسلم يدين برب العالمين، وأنه يصف ربه بالرحمة مرتين عند الابتداء بكل سورة من سور كتابه.

ولعله كان يحسن المقارنة جداً، وحقاً، لو أنه قنع بهذه الصفة من صفات إله الإسلام، وقارن بينهما وبين دين الصفات التي يختارها غير المسلمين، فلا يذكرون الله في مفتاح دعواتهم بغير صفة القوة والجبروت.

فإله رب العالمين، مالك يوم الدين، لم يكن نسخة محرفة من صورة الله في عقيدة من العقائد الكتابية _ كما زعموا _ بل كان هو الأصل الذي يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة في الإله، كأكمل ما كانت عليه، وكأكمل ما ينبغي أن يكون.

ومن ثم كانت هذه العقيدة الإلهية في الإسلام، مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات، أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية.

فهي عقيدة كاملة، صحت وتممت عقيدة الهند في الكارما والنرفانا؛ لأنها عقيدة في خواء، أو فناء مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة.

وهي عقيدة كاملة، صحت وتممت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين؛ لأنه كان على خطأ: في فهم التجريد والتزريه، ساقه هذا الخطأ إلى القول بكمال مطلق كالعدم المطلق في التجرد من العمل، والتجرد من الإرادة.

ودين يصحح العقائد الإلهية، ويتممها فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها؛ تراه من أين أتى، ومن أي رسول كان مبعثه ومداعاه؟
من صحراء العرب.

ومن الرسول الأمي بين الرسل المبعوثين بالكتب والعبادات.
إن لم يكن هذا وحيا من الله، فكيف يكون الوحي من الله؟!

ليكن كيف كان في أخلاق المؤمنين بالوحي الإلهي حيث كان، فما يهدى رجل أمي في أكنااف الصحراء إلى الإيمان بالله، أكمل من كل إيمان تقدم، إلا أن يكون ذلك وحيا من الله. وإنه لحجر

على البصائر والعقول، أن تذكر الوحي على هذه المعجزة العليا؛ لأنه لا يصدق عليها في صورة من صور الحدس أو الخيال. انتهى كلام العقاد.

وبعد: فمن العجيب الغريب المضحك المبكي، أن نضطر لمقارنة عقيدة الإسلام في باب الربوبية، مع سخافات البشر في هذا الباب!!

أليس عجيباً أن نقارن ديانة فيها مثل هذا النص:
قال تعالى: "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ" لقمان : 27

بداية تقول عن الله: بأنه يجامع، أو يصارع خلقه، ويقادون يغلبونه، أو أن له ولدا، أي وزوجة.
مثل هذا الكلام التافه يمكن أن يقارن به ذلك الكلام العظيم؟!

إن أي نص عن الذات الإلهية في القرآن تدرسه، بذلك على أن هذا النص لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ذاته، كلاماً ووحياً.

ولكن ما العمل إذا ألف الناس العمى لدرجة أنهم لا يحبون معه الإبصار؟!
لقد درسنا ظواهر الكون، فدللتنا على صفات الله، فلما عدنا إلى كتاب الله ازداد الفهم عملاً، وأدركنا من أبعاد الموضوع أكثر، ولا شك أنه لو لا أننا مسلمون، قد استقرت في أذهاننا معرفة الله كأكثر عن الوحي، ما سرنا في هذا البحث على مثل هذا السير. فدين يأخذ بيد العقل على هدى العلم؛ ليديله على أن يربط الفروع بأصولها، ويرجع بالأصول إلى مصدرها حين لا يمكن أن يكون إلا حقاً.

إن هناك ناساً لا يسمعون ولا يعقلون ولا يفكرون، عقائدهم سخيفة، فإذا ما دعوا إلى مثل هذا الصفاء، وإلى مثل هذا المنطق الحكيم، رفضوه لأنهم درجوه على عقيدة خاطئة، وألقوها دون أن يكلفو أنفسهم عناء البحث، فهو لاء كما قال الله عنهم "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ" الزخرف : 22. كل أصحاب عقيدة باطلة يقولون هذا: أما ينبغي لهؤلاء أن يعيدوا

النظر؟ فالقضية ليس قضية خيار؛ وإنما هي قضية مصير الإنسان: إما إلى جنة، أو إلى نار سحرهم أبداً، إن لم يهتدوا.

إن الوثنيين والمشبهين، والذين يعطون صفات الله لخلقه. إن الذين لم يعرفوا صفات الله العليا، وأسماءه الحسنى، ووجوده الكامل، وهيمنته الدائمة، وإمداده العظيم، وتدبیره لشؤون خلقه ابتداء وانتهاء. إن الذين لا يرون آيات الله في كل ما خلق. هؤلاء كلهم لا يعرفون الله. إننا نحن المسلمين فقط نعرف الله حق المعرفة، وننرّه حق التنزيل، ونعبد حق العبادة، ومن قرأ الكتابين اللاحقين من هذه السلسلة الرسول، الإسلام سيرى حقاً عجباً، لا يمكن أن يكون، لو لا أن الله عز وجل، هو الذي أوحى، ويسّر، وأراد ما أراد لهذا الرسول صلى الله عليه وسلم وبهذا الدين.

**وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهِ
تَمَّ جَمْدُ اللهِ**